

57

كتابي

إيثيل مافين

# الطريق إلى بحر سبع

الجزء الثاني

Looloo

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)

المؤسسة العربية الحديثة

طبع و نشر في بيروت  
الطبعة الأولى: ٢٠٠٤  
الطبعة الثانية: ٢٠٠٥



# الطريق الى بشر سبع

الجزء الثاني

ايشيل ماتين



**Looloo**

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)

## الكتاب الثاني

## المنفى

- ١ -

توجه « روبرت ملبي » إلى مطار لندن لاستقبال ابنته « ماريان » وحفيده « أنطون » . وكان قد غادر - منذ أحد عشر عاما - هو وزوجته « الزبيث » البلاد التي كانت تسمى ( فلسطين ) من مطار كهذا المطار في طريقهما إلى الوطن ، أو ما كان الناس يسمونه الوطن ، أما هو والزبيث فكانا يعتقدان أنهما إنما يفادران وطنهما الحقيقي ، لأن (يانا) هي وطنهما وليست لندن ! . يانا أو فلسطين بأسرها . ولكم ذرفت الزبيث من الدمع وهي تلوح بيدها من نافذة الطائرة في ذلك اليوم ، مع أن ابنتها ماريان وطفلها كانا قد غابا عن الأنظار منذ وقت طويل . وراحت تنهه متممة لنفسها والطائرة تشق طريقها صاعدة :

— ترى متى نراها مرة أخرى يارب ؟

وها قد جاء جواب السماء . فهذا المساء القارس من امسيات نوفمبر سنة ١٩٤٩ — بعد أحد عشر عاما — هو الموعد الذي حدده القدر لذلك اللقاء المنشود . ومع ذلك لم تأت الزبيث إلى المطار ، وجاء روبرت بمفرده ، لأن زوجته مشغولة بإحدى حفلات تلك الجمعيات العديدة — بين خربة

ونموية — التي تسهم في نشاطها وتكاد تاكل حياتها اكلا . ولم يكن في وسعها الاعتذار وهي من خطباء الحفل !

لقد قيل لـ روبرت أن صديقه بطرس منصور مات بعلة في القلب ، لأنهم في علم الطب لا يعرفون شيئا اسمه « تحطم القلب » على اثر صدمة مزعومة . ولكن روبرت ملبي يعرف عن يقين أن فلسطينيين كثيرين عدا بطرس منصور لابد أنهم ماتوا بتلك العلة ذاتها بعد « النكبة » !

أن هذه النكبة هي التي تاكل اليوم قلب ماريان أيضا ولا شك . ماريان التي غدت وحيدة في الدنيا . أجل إن لديها ابنتها ، ولكن المرأة بحاجة قطعاً إلى « شيء ما » أكثر من الابن لمواجهة الحياة . ولكم كان هذا الابن فخورا بأبيه في طفولته . وأن جده لأمه يرجو اليوم أن يجد فيه حفيده مدعاة للفخر أو الثقة على الأقل . أن يجد فيه رجلاً متزناً ذا «مة» ، يعتز كثيراً بأنه كان فيها مضي صديقاً حميماً لأبيه الراحل .

لقد كتبت ماريان إلى أبيها قائلة : « إن الصبي يشعر بأنه ينتمى إلى آل منصور أكثر من انتمائه إلى آل ملبي . وذلك بشير خير على كل حال . فلا بد للفتى أن يشعر بعروبته . بأنه عربى . وبأنه فلسطينى . وأنه من سلالة شعب مظلوم مضطهد . . شعب أبيه المنكود » .

وفجأة أبصر بهما « روبرت ملبي » من باب بهو الجمرات المفتوح واقفين إلى جوار حاجز مئتل بالحقائب ، وماريان بدون قبعة كعادتها « وقوامها رفيع أنيق كالقرد » ، وإلى

جانباها فتى نحيل يضارعها في الطول : فتى وسيم ذو بشرة زيتونية . . فتى عربى !

وفرح قلبه بمراى حفيده ، وتطلعت ماريان إلى أعلى ورائته ، فلوحث له بيدها ، وقالت للفتى شيئا ما ، فنظر حيث أشارت له أمه ، ثم لم يلبث بعد لحظة أن ابتسم على استحياء ولوح بيده لجده .

واشتد تزاحم الناس وتداغمهم بعد ذلك فابتلعهما ذلك المد ، وانقضت فترة طويلة قبل أن يبرزوا إلى البهو الرئيسى للمطار . وخيل إلى ماريان وهى تملأ عينها من أبيها أنه لم يزل على نحافته وانتصاب قامته المهودين في أبناء الإنجليز ، ولم يطرأ عليه تغير يذكر سوى اشتغال رأسه شيئا وزحف السن إلى محياء . ولكنها ظالت له في حماسة وهى تعاقبه في غمرة السعادة باللقاء :

— أنت كما أنت . . لم تتغير قيد أنملة !

وضحك ، وإن لم تخدعه كلماتها . فهى أيضا قد تغيرت . ولم يفته إدراك ذلك رغم نحافتها ورشاقتها . فها هو الشيب قد دب إلى شعرها الداكن ، وهذه خطوط قد ارتسمت هناك وهناك على محياها ، فهى لم تعد تلك المرأة الفينانة في باكورة الثلاثين ، بل امرأة في أواسط الأربعين . ولا عجب ! فإحدى عشرة سنة ليست بالفترة القصيرة في عمر امرأة . . ولا سيما إذا كانت تلك المرأة قد عانت ألوان الويل والعذاب .

وابتسم روبرت ملبى لأنطون ، وخاطبه بالعربية : قائلا :

— إذن فانت ابن صديقى بطرس منصور !

فابتسم الفتى بارتباك ، وقال باستحياء :

— إني أعرف الإنجليزية أيضا . وفى وسعك أن تكلمنى بها .

— أعرف هذا . ولكنى أحب أن نتكلم العربية بين الحين والحين : فإنى أحب وقع حروفها على أذنى . ولنى أمد طويل لم أسمع أحدا يتحدث بها . .

وسالت ماريان أباه أين أمها ، فقال لها إنها لم تستطع التخلل من ارتباطها بأحدى لجائتها وجميعاتها الكثيرة ، وأنها ستكون في البيت عندما يصلون إلى هناك . وسألها بعد ذلك عن رحلتها ، فقالت ماريان : « لقد كان الجو دافئا جدا في أريحا عندما غادرناها . وكان الطيران مملا » .

— وهل راقى الرحلة أنطون !

ونظر كلاهما صوب أنطون الذى قال : « كانت لا بأس بها » ، فقالت ماريان وهى تحاول عيشا أن تخفى تقطيعها بابتسامها :

— لم يكن راغبا في المجيء .

فقال ملبى : « لست ألومه على هذا » ، ثم وضع الرجل يده برفق على كتف الصبى ، وقال :

— لا تكثرث كثيرا لهذا النفى ، غانه ان يطول إلا أعواما معدودة . اما أنا فالنفى بالنسبة لى سيدوم إلى الأبد !

فقال ماريان بلهجة الشكوى :

— إنه لا يرى سببا يدعو لمجيئه إلى هنا على الإطلاق .

ولم يحاول انطون ان يلقى بأى تعليق . وعندئذ قال لمبى انه استأجر سيارة تحملهم إلى البيت . وخرج ثلاثتهم من مبنى المطار ووقفوا على الرصيف فى انتظار حضور سيارتهم من الموقف . وكانت الريح باردة ومحملة بالطر ، غارتجف انطون كارتجافه عندما برز من باب الطائرة لأول وهلة ففاجاه الجو البارد بعد دفء الطائرة .

اجل ، كان الجو يتسم بالبرودة فى ( رام الله ) شتاء ، ولكن ليس إلى هذا الحد . فما أشبه البرد هنا فى لندن بضرب خفى من الرطوبة ، يتسرب تحت سطح الجلد ويقتل حتى العظام . ومن العجيب أن الجو فى صباح هذا اليوم نفسه كان حارا فى أريحا . أما فى عمان عند الظهر فكان شديد الدفء .

واستقلوا سيارتهم أخيرا ، وراح انطون يتطلع من النافذة إلى امتداد الحظائر الواسعة القبيحة الشكل فى أرجاء المطار ، ثم إلى المصانع السابحة فى الأضواء على طول الطريق إلى الضواحي التى تحفل بالفيلا الصغيرة التى تتراجع كل منها عن الطريق العام وراء حاجز صغير من الخضرة !

وكان جده الإنجليزي ينفطر إليه ويقول فى نفسه مسرورا : — ياله من فتى أسمر . . تلك السمرة العربية الفاتنة ! وشاعت البهجة فى محيا الصبي بمض الشيء عندما وقع نظره على أول لمحة من مياه نهر 'نتيز ، وهم يجتازون إحدى قنطرته ، وبدأ له النهر اللندنى وأسعا جدا بالقياس إلى نهر الأردن . وازداد تهلل وجهه عندما تجلت أمام ناظريه الشابات والمروج فى ضوء مقدم السيارة بضاحية ( وميلدن ) . فيها هنا فراغ ووحشة وخضرة ، وهى أشياء يعرفها جيدا ويأنس إليها .

وسمع صوت جده يقول له :

— لولا الظلام لاستطلعت أن ترى عند حافة هذا المقتره لعام بناء المدرسة التى ستدخلها .

وأرسل انطون بصره يحاول أن يخترق الظلام فى الاتجاه الذى أوما إليه جده ، وأرشف لمبى قائلا : « وأنتها لمدرسة جيدة ، وستحبها كثيرا » .

وصمت انطون برهة ثم سال جده :

— أهى المدرسة التى كان أبى يريد أن يلحقنى بها ؟

— نعم . وقد طلب إلى منذ سنوات أن اسجل اسمك فيها كى أحجز لك مكانا . وكان مسرورا جدا لذهابك يوما ما إلى المدرسة التى درست فيها أنا . .

وأسرعت ماريان تقول : « وأنا أيضا راقتنى الفكرة كثيرا » .



واستطرد ملبي :

— وهى مدرسة نهائية . وسيكون فى مقدورك ان تعيش فى البيت معنا . فها نحن اولاء . وهذا الباب الأزرق باب بيتنا .

ودهنس أنطون لصفر حجم بيت جديه . فهو لا يكاد يزيد شيئاً على حجم الاكواخ التى كان يقيم بها الفلاحون فى ضيعة والده باللد ! ورأى على مدخل البيت من الخارج مصباحاً معلقاً وظلة يعرش فوقها نوع من الكرم . واستطاعت عينه ان تميز فى ظلام الحديقة الصغيرة اشجار الورد .

أما امه فصاحت بحبور وهى تترجل من السيارة :

— ياله من بيت صغير عزيز ! لا عجب أن نفتسأ به أنت وأبى ! وهو يطل أيضاً على المنتزه العام مباشرة . فكانكما فعلاً وسط الريف ! وها هى ماما !

واقبلت سيدة أنيقة شهباء الشعر تخرق الممر بخطوات سريعة ، وتكرر العناق والتقبيل والترحيب على نحو ما حدث فى المطار ، وقبلت الجدة أنطون وضمتها إلى صدرها ضماً شديداً ، وأخذت تصيح به :

— لكم غدوت فارغ الطول ، ولم تكن سوى طفل يدرج على الأرض عندها رايتك فى آخر مرة !

وظلت تحملق فيه بانتشاء أورثه ارتباكاً . وذكره منظرها بمنظر طائر يعرفه ، فعيناها شاقبتان كعيني الطائر وحركاتها سريعة كحركات الطيور ، وفيها شيء يذكره بالمنقار

وحركته . وعقدت أخيراً ذراعها بذراعه ودخلا البيت ، فداخله إحساس بعدم الارتياح ، لأنه شعر بها وكأنها — على هذه الوثيرة — قد وضعت يدها واستولت عليه !

والواقع أن وجود حفيدها تحت سقفها كان يعنى الشيء الكثير فى نظر الزبيث ملبي . وكانت تعتقد فى قراره نفسها أن ماريان لو كانت غلاماً لتغير نهج حياتها كثيراً . ولقد كان وليدها الأول غلاماً ، بيد أنه مات فى باكورة طفولته . والطفل الذى تمت أن يملأ الفراغ الذى خلفه الغلام النراحل جاء أنثى . . . وصارت الأنثى — ماريان — ابنة أبيها . ولم يكن فى ذلك ضير ، لأن روبرت ملبي رجل متزن ، ولكنه جعل حياتها خاوية . وما أكثر ما منيت به من خيبة الأمل . ولكم حاولت أن تتحمل تلك الصدمات بقلب مؤمن ، ولكن ضعفها كان يغلب عليها ، ويرين عليها من ذلك ألم وشعور بالضيق والغبين .

لقد خيل إليها فى وقت ما أنها أقدمت على حياة كلها رومانسية ومغامرة ، حين تزوجت من روبرت ملبي ومضت معه إلى الأراضى المقدسة كى تكون عوناً له فى إدارة مدرسة للعلماء العرب المكفوفين . . . ولقد أحببت كثيراً البيت الذى سكنه فى يافا ، ولكنها لم تحب يافا نفسها . وكانت ذروة أملها فى الحياة بفلسطين أن تنتقل يوماً ما إلى القدس . . وكان شعورها الدينى المتحمس يجعلها تنظر حوله وهيام إلى كل شجرة زيتون تراها على جانب التل ، على أمل أن تكون عين السيد المسيح قد وقعت على تلك الشجرة ذاتها فى مدة

حياته هناك . ولكن روبرت ملبي كان يهدم لها آمالها تلك بقوله أن ذلك غير مرجح ، لأن أشجار الزيتون لا تعمر كل تلك القرون العشرين !

وكانت تقول في نفسها أن روبرت ملبي رقيق الحاشية جدا ، طيب القلب بمعنى الكلمة ، ومع هذا ففى مقدوره أحيانا أن يكون قاسيا جارحا . بل إنه كان فى الواقع أول صدمة وأول خيبة أمل منيت بها . فهو ابن رجل من رجال الدين ، وفى أسرته كثير من رجال الإرساليات المنتشرين فى العالم ، ولكنه لم يكن صادق الإيمان بالمسيحية . لأن اطلاعه العلمى جعله ينظر نظرة شك إلى كثير من المواقف التى يسميها الناس أماكن مقدسة فى فلسطين ، وقد بلغ به شكه أنه نعت الكثير من تلك المعتقدات بأنها « هراء » . أما هى فكانت على العكس منه ، توافقه للانتقال إلى القدس أو بيت لحم ، حيث المزارات التى يقدسها المسيحيون المخلصون . أما روبرت ، فكان يحب ( يافا ) ويفضلها على كل مدينة أخرى فى فلسطين ، لا لشيء إلا لأنها مدينة إسلامية خالصة . أو على حد تعبيره هو لأنها مدينة عربية خالصة .

وأنها لتمعقد فى قرارة نفسها أنه لولا إقامتهما فى مدينة يافا لما انغمس روبرت على هذا النحو فى الحركة الوطنية العربية بحماسة بالغة سافرة ، ولما ترتب على ذلك استعداؤهما إلى لندن . وكذلك لولا إقامتهما فى يافا لما أتيت لابنتهما الوحيدة أن تلتقى ببطرس منصور !

وليس معنى هذا أن الزبيث كانت تضرع شعورا عداثيا نحو بطرس منصور ، فهو فى نظرها رجل ظريف ومسيحي لا غبار عليه سوى أنه أرثوذكسى ، فى حين أن آل ملبي من غلاة الإنجليكان . ثم أن بطرس منصور فى سن والده ماريان . وأنه لن المخرج بلاشك أن يكون زوج البنت فى سن حياه ! وقد أصر هذا الزوج العربى المسيحى على أن يتم عقد القران فى الكنيسة الأرثوذكسية . وكذلك تمت معمودية أنطون فى تلك الكنيسة أيضا ، وهذه كلها أحداث أورثت الزبيث خيبة الأمل .

وجاءت بعد ذلك خيبة أمل لا شك فيها أيضا ، وهى العودة الاضطرابية ، والإقامة فى أنطرا مرة أخرى ، ومعاناة برودة الشتاء القاسية هناك . هذا بالإضافة إلى معركة بريطانياسا المحملة للأعصاب ، ليل نهار . وازداد شعور الزبيث بخيبة الأمل حينما رفض روبرت أن يصحبها إلى الكنيسة يوم الأحد ، كما رفض فى أيام الأسبوع أن يبدى اهتماما بنشاطها الخرى والاجتماعى .

ولم يكن من عادة الزبيث أن تشكو أو تنتقد ، لأنها ربيت على تقبل الأمر الواقع فى صبر وجلد . ثم أن روبرت رجل طيب فى أعماق سريرته ، وابنتهما الوحيدة ماريان شبت ذكية كابنها وطيبة القلب مثله . وكانت مثله أيضا فى محبتها للعرب . وثئن كانت أقرب بعواطفها إلى أبيها منها إلى أمها فذلك هى سنة الطبيعة التى لا حيلة فيها . كما أن إرادة الله هى التى شاعت أن تحرم الزبيث من الولد الذى كان حريا أن

يتعلق قلبه بها . وليس لامرأة مؤمنة مثلها أن تناقش إرادة الله . ولذا حاولت على الدوام الاستسج للمرارة بالنسرب إلى أغوار سريرتها ، وأن تجعل حياتها فافعة لنفسها وللناس ، وأن تنظر دائما بعين الرضى والشكر إلى النعم الكثيرة التى أفاضها الله عليها .

ولم تتمالك الزبيث نفسها - عندما وصلت انبساء وفاة بطرس منصور فجأة - من الشعور شعورا مختلطا مزدوجا متناقضا : بالرتاء لـ ماريان ، وبالأمل المشوب فى أن تسعد هى أخرا بعودة وحيدتها إلى إنجلترا مع الغلام ، فيتسنى لها أن تعرف حفيدها وأن تجد فيه بديلا من ابنها الذى حرمت منه قبل الأوان .

وأبرق روبرت ثم كتب تفصيلا بالبريد يستحث ابنته على الحضور إلى إنجلترا . وردت عليه ماريان بأن ذلك هو رايها أيضا ، وأنها ستأتى ومعهما أنطون بمجرد الفراغ من إجراءات نقل ملكية ضيعة أريحا إلى خليل داود ، وتساوية جميع التفصيلات المترتبة على حصر التركة . ولم تكن الزبيث تعلق أملا كبيرا على جو التقارب الحميم بينها وبين ماريان . بل كانت تتوقع أن يكون التقاؤهما أشبه بالتقاء الغرباء . أما تعويلها كله فكان على ذلك الحفيد الصغير أنطون ، وعلى أن تنشأ بينها وبينه صلة مودة تتجاوز كل ما كان بينها وبين ابنتها . وأنها لترى فيما حولها من البيوت أطفالا كثيرين يرتبطون بأجدادهم أكثر من ارتباطهم بآبائهم وأمايتهم . وإذا كان شوق الزبيث إلى حفيدها العربى أشبهه بحنين

الاحشاء . وهى لا تجد غضاضة فى ان يكون حفيدها عربيا . وإن كانت تؤمل فى قرارة نفسها أن يأتى اليوم الذى تختفى فيه تلك اللحات العربية لتحل محلها لحات مكتسبة من الإقامة المستمرة فى جو إنجلترا . سيما بعد أن ينخرط أنطون فى سلك المدرسة العامة . وميساعده على ذلك بلا شك ما ورثه عن أمه من عيني زرقاوين . وحاولت أن تبالغ نفسها فى لون بشرته الزيتونى « وامتلاء شفتيه ، وقوة أنفه ، ذلك الأنف الذى ورثه عن آل منصور .

إنه الحب من أول نظرة . فقد كان تأثير الغلام على جدته صاعقا ، بوسامته وقامته . وأنه لحفيد تفخر به أى جدة . وقد صار غاية أملها الآن أن يشعر الغلام لها بشئ ولو قليل من المعزة والمودة ، فيعوضها هذا القليل عن كثير جدا مما تشعر أنها حرمت منه !

\*\*\*

أما ماريان فقد وجدت - بعد تلك الغيبة الطويلة جدا من إنجلترا - أن من الصير عليها أن تتأقلم بالحياة الإنجليزية والمناخ الإنجليزي ، فجعلت ترتجف ارتجافا غير قليل فى أيام الخريف الرطبة ، مع أن والديها ظلا يؤكدان لها أن الجو فى خريف تلك السنة معتدل جدا . وكانت أمها تقول عائبة :

- لندن ليست بطبيعة الحال مثل أريحا ! ولكنها ليست أشد برودة من رام الله أو القدس فى مثل هذا الأوان من العام .



ولم تكن هناك جدوى من تذكرها بأن البرد في رام الله أو القدس يزد جلي جاف يبعث العافية في البدن ، أما هذا البرد اللندني غرطب يتسلل إلى النخاع . وكنت تنصح ابنتها على الدوام بالخروج للسير السريع الناشط في المتزه العام ، باعتبار ذلك السير هو الوسيلة الفعالة لتنشيط الدورة الدموية والتغلب على آثار البرد القارس .

ولم تكن الزيت تبجل أن صدمة ماريان بوفاة بطرس من أشد العوامل تأثيرا في هبوط روحها المعنوية وضعف مقاومتها للحالة الجوية ، فكانت تردف : « ولكنك لن تلبث أن تغلبى على هذه الصدمة . فمن رحمة الله بنا جميعا أننا نحن البشر نتغلب على كل متاعبنا بفعل الزمن » .

وكانت لهجة الأم رقيقة وصادرة عن إحساس صادق بهسية ابنتها ، ولكن التعبير لم يكن يواثي الزيت بسهولة ، لأنها فقدت منذ زمن طويل القدرة على التعبير عن عواطفها وعطفها وإعزازها ، لأن روبرت كان قد قتل ذلك كله لديها منذ سنوات طوال !

وكانت ماريان تعرف ما تضره لها أمها من العطف ، ولكنها في الوقت نفسه تدرك أنه من المستحيل على تلك الأم أن تفهم إحساسها ، لأنها لم تجرب قط في حياتها الحب المشوب ، ولم ينزل بساحتها ذلك الحرمان الموجه الذي لا يستطيع إحداها في حياة المرء إلا الموت . أجل إن فقدان ذلك الطفل - الذي مات في الأسابيع الأولى من عمره - ربما كان موجعا لقلب الزيت ، ولكنه لا يمكن أن يقارن بذلك

الفقدان الفاجع لشخص كامل النمو قريب إلى النفس بمد معاشرة دامت بهذا طويلا من الزمن .

إن أربعة عشر عاما من الحياة الزوجية يمكن أن تعتبر في نظر بعض الناس فترة قصيرة . والحقيقة أنه لولا النكبة الفلسطينية لامتدت هذه الحياة عشر سنوات أخرى على الأقل . وليس صحيحا على الإطلاق أن كل شيء يمكن أن تذهب الأيام المتوالية بلذته ومرارته . فبطرس لم تستطع الأيام المتوالية أن تنسيه بيته المفصوب ووطنه المسلوب وكرامته القومية والإنسانية التي داسها اليهود بالأقدام .

ولم يستطع بطرس أن ينسى طعم الهزيمة ، وطعم المهانة ، وضيق الشخصية القومية . ولم يستطع أن ينسى - بمرور الزمن - أنه فلسطيني ، ولم يستطع في أي وقت من الأوقات أن يدعو نفسه أردنيا . وفي النهاية غلبه القهر على أمره ، ومات كسير القلب محطم الروح . وكان شقيقه غريب على حق عندما قال وهو يذرف الدموع بجانب جثمانه :

— لقد قتلتك اليهود يا أخى ، قتلك بالغم والتشتيت وعار الهزيمة !

أجل ، لم يكن من اليسير على ماريان - في جو الخريف الإنجليزي القاسي - أن تتأقلم جسدا وروحا وهي تتمشى في متزه ( وبلدن ) مع أبيها أو مع أنطون أو بمفردها تماما . كانت الأفكار الحزينة تهاجمها على الدوام ، فلا بد لها من العثور على شيء تشغل به وقتها ، كي تنسى خيالات البريق

وأشجار السرو وشمس أريحا الحارة ، مثلما تسيت ( اللد ) من قبل ... ينبغي بأى شكل من الأشكال أن تتعلم كيف تعيش بدون بطرس . بطرس الذى كان لها زوجها وأبا وحبيبها وصديقا مدى أربعة عشر عاما . بطرس الذى عاشت في كنفه ، والذى تعلقت به في شغف لا مزيد عليه وهى شابة ، ثم تعلمت بمرور الزمن أن تتعلق به تعلق الشكر وعرفان الجميل وهى فى أواخر العمر .

إن عليها الآن أن تعلم نفسها بنفسها كيف تعيش في أعماق وحدتها ، تلك الوحدة الحميمة التى لا يستطيع حتى أبوها ، صديق بطرس وشبيهه في خلأته ، أن يتغلغل إلى قرارتها .

ذلك كله ثقيل الوقع على نفسها ، مثلما كان ثقيل الوقع على نفس أنطون أن يفقد أباه الذى يعتز به ويحبه ، وأن يجد نفسه - وهو العربى المتحمس لعروبته - رهين المنفى في إنجلترا ، مهما تحدثوا إليه عن جمالها وما تقدمه له من فرص التعليم والثقيف .

ستظل إنجلترا - لأنطون ولأمة على السواء - أرض المنفى ، ماداموا بعيدين عن الوطن الحقيقى .. عن فلسطين !

كانت السنة الأولى بطولها - بالنسبة لأنطون - فترة من الحيرة ، وانتجارب الجديدة ، والمناظر غير المسالوفة . وكثيرا ما دهشته هذه الأحوال الطارئة وأفتدته زمائه ، فلم يكن يجد ملاذا له سوى الحديث بينه وبين نفسه ، متوجها بنجواه إلى صديقه وليد . ومع أنه كان يسطر إلى وليد صفحات لا تحصى في ذهنه ، إلا أن كل محاولة لتدوين جزء ولو يسير من هذه الخواطر على الورق كان أقوى من طاقة احتياله ، فلم يستطع أن يرسل إلى صاحبه سوى بطاقات بريد ملونة عليها صور تمثل برج لندن ، وميدان الطرف الأغر بحمامه المشهورة ، وسبيرك بيكاديللى ، ومتنزه ميلدن بلاصومة الهواء المشهورة ، والكنيسة التى يذهب إليها يوم الأحد مع جدته . وتطورت هذه البطاقات فيما بعد فحملت إلى وليد نسخا من الصور المشهورة التى يحفل بها المتحف الاهلى للفنون .

وكان وليد يدرس كل هذه البطاقات البريدية بعناية واهتمام ، ويحتفظ بها بين صفحات كتبه وكراساته مسرورا بها ، ولكنه لم يكتب إلى صديقه سطرأ واحدا ، مع أن ذهنه أيضا كان حائلا بالخواطر والأحاديث التى يبثها صاحبه في نجوة من الناس ، كلما خلا إلى نفسه !

ولم يكن مكان أنطون في المدرسة مهيئا لاستقباله قبل الفصل الدراسى الثانى في شهر يناير . وفي الشهور التى سبقت ذلك الموعد بذلت ماريان قصارى جهدها كي تعرفه

بمعالم لندن ، التي بدت لانطون مترامية الأرجاء بصورة لا يصدقها العقل ، فكانها هي جملة مدن كبيرة تصب في موضع واحد بحيث يتداخل بعضها في بعض .

وكان يخيل إليه - حين ينظر إلى لندن من فوق قمة إحدى السيارات العاملة - أنها تمتد امتدادا لا متناهيا ، كاستداد الصحراء . بيد أنها والصحراء على طرفي نقيض ، فلندن تضج بالحياة والحركة والضوضاء ، والصحراء يرين عليها الصمت والخلا . وكانت أكبر مدينة رآها من قبل هي اللد ، التي لا يزيد عدد سكانها على خمسة عشر ألفا . أما رام الله فلم تكن حينئذ أكبر من قرية كبيرة إلا بمقدار غير محسوس . أما أريحا فلا تزيد في حجم سكانها على شارع رئيسي واحد .

وأما القدس القديمة ، بازقتها التي توج بالمسرة والحبر والسلع ، فهي آخر ، ولكنها لا تضاهي في حركة مرورها الدائبة مدينة لندن ، بما فيها من سيارات خاصة وسيارات أجرة وسيارات عامة ضخمة عالية حمراء ، والعامس جميعها في هذه العاصمة العجيبة يرتدون الثياب القاتمة ، بل إن الأبنية ذاتها كانت قاتمة ، والسما من فوق الناس والأبنية قاتمة أيضا . والسيارات الكبيرة معطلها أمريكية ، ولكن مددها بدا له قليلا جدا بالمقاييس إلى السيارات الإنجليزية الكثيرة العدد ، الصغيرة الحجم .

وقد أثار اهتمامه كوبري ( برج لندن ) ، وكان من حسن حظه أن يراهم يفتحون ذلك الكوبري العملاق لضر من تجهه سفينة كبيرة عالية . ولفت نظره اتساع نهر التيمز ، وشدة قدرته ، فهو لا يستخدم للري أو الشرب بل تأتي أهميته

الكبرى من تلك السفن الضخمة التي تمخره تامة من جميع أرجاء العالم .

وتركت زيارة انطون لبرج لندن اثرا في نفسه ، فاشتري نخبة من بطاقات البريد التي تصور نفائس ذلك البرج ليرسلها تباعا إلى وليد . أما كنيسة القديس بولس فذكرته من بعيد بقبة الصخرة في القدس . وذات يوم ، وهو متجه إلى قلب لندن بالقطار ، لمح من النافذة مسجدا هو أحد مسجدي لندن الكبيرين ، وقد جعله منظر المسجد يرداد إنسانا بالمدينة الكبيرة ، ففيها شيء من وطنه الأصلي . وقد ذكرت له جدته أيضا أن بها كنيسة أرثوذكسية . ومع هذا ظل حينه إلى فلسطين أقوى من مفريات المدينة الكبرى على الدوام . وظلت رائحة « الفلافل » تداعب أنفه ، وتذكره بالحوانيت الصغيرة المثبتة في شوارع وطنه وحواريه ، كلما أرخى المساء سدوله .

حتى أريحا بجوها الحار وصحرائها المحرقة وبحرها الميت ، كانت تداعب مخيلته فبشدد حينه إليها ، ويتمثل له أبوه جالسا في الشرفة « واضعا كفيه فوق مقبض عصاه القنسي ، تلك العصا التي كانت الشيء الوحيد الباقي له من ثروته الكبيرة في اللد . ولكن انطون لم يكن يذكر اللد بمثل ذلك الحنين ، لأنه لا يستطيع أن يتذكرها إلا محتاطة أشد اختلاط وأعنفه بالرعب والمخاوف . ولذا يحس في أعماق نفسه بأن العودة إلى اللد في حكم المستحيلة ، ولكن جده يقول

له إن المستحيل كلمة لا معنى لها ، وأن وطن الفلسطينيين لابد ان يعود يوما ما إلى أهل فلسطين .

\*\*\*

قبل دخول المدرسة ببضعة أسابيع ، شرع أنطون في العمل تحت إشراف مؤدب خاص ، كي يتسنى له الانتظام في المدرسة الجديدة ابتداء من شهر يناير . وكان في كل صباح يعبر المتنزه العمام مع جده إلى بيت كبير عتيق يضم عددا من المكثوفين . وكان فريق منهم مصابا بالصمم أيضا . فهواية جده الآن ، وقد تقنبت به السن ، أن يساعد في الترفيه عن أولئك الناس والحديث إليهم . وقد تعلم أنطون منه كيف يخاطب الصم بلمسات بدوية مرهفة . وكثيرا ما حدث روبرت لمبى حفيده عن المدرسة التي كان يديرها في بافا ، وكانت تضم المكثوفين من المسلمين والمسيحيين واليهود ، على قدم المساواة .

وفي تلك النزاهات أيضا كان روبرت يحدث حفيده عن الحركات الوطنية العربية في فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية . وكيف تكث الإنجليز وعودهم للعرب بأن يمنحهم الاستقلال ، عندها حاربوا الأتراك في فترة الحرب العالمية الأولى . وكيف أن قصة إنجلترا مع العرب هي قصة الخيانة والخديعة على طول الخط . فأيض أنطون أن حقيقة مأساة شعبه الفلسطيني - التي أدت إلى قتل أبيه وقتل مئات الألوف من مواطنيه - إنما ترجع أسبابها الحقيقية إلى ذلك الموقف المغادر الذي وقفه الحكام الإنجليز من العرب عموما ، ومن الفلسطينيين على وجه الخصوص .

ولكم تعلقت روح أنطون بتلك النزاهات مع جده - فما أشد ما كان يذكره بابيه - فازداد شغفا بذلك العجوز المستقيم النفس النزيه التفكير . ولا عجب إذن أن يكون شعوره نحو جدته أقل حرارة من شعوره نحو جده بكثير . إنه يأنس إلى صحبتها - ما في ذلك شك - ولكن ذلك الأنس ليس صادرا عن تعلق حقيقى ، بل عن عدم مبالاة ! فهو يذهب معها صباح كل يوم أحد إلى الكنيسة ، ويجد راحة نفسية في جو تلك الكنيسة الإنجليزية ، وهو أقل عمقا بكثير من جو الكنيسة الأرثوذكسية الصغيرة في أريحا . وقد أدهشه في بداية الأمر أن يجد الرجال والنساء يجلسون متجاورين ، لأن الأساس في لندن لا يعرفون الفصل بين الجنسين . وكانت نفسه تحن بين الفينة والفينة إلى سماع الألفاظ العربية التي ترد في كنيسة أريحا . عندها يتلو القسيس الصلاة أو يردد الشمامسة التراتيل . ولكنه لم يكن يحدث أحدا بحنيئه إلى وطنه . حتى ولا جده الحبيب الذى يحب ذلك الوطن . فقد أبقى لنفسه حبله المشرق مع وليد : حلم طريق بئر سبع ، إلى أن يحين الوقت . فتنتهى فترة هذا النفى ويعود إلى تلك الأرض التي كانت يوما ما جزءا من فلسطين !

\*\*\*

وأخيرا ، في شهر ديسمبر كتب إلى وليد ، يقول :

- يا عزيزى وليد ، أرجو أن تكون قد وصلتك البطاقات البريدية التي أرسلتها إليك . ويؤسفنى أنى لم أستطع إرسال خطابك إليك قبل هذا ، لأنى كنت مخطوطة التفكير بسبب

الحياة الجديدة من جميع الوجوه التي تحيط بي هنا . لقد اخفوني لمقابلة ناظر مدرسة « كلية الملك » التي سأنظم في صفوفها في يناير القادم ، وكان الرجل لطيفاً جداً معي ، وحسن الظن بي ، ولكنني سأؤدى امتحانا تحريرياً يسمونه امتحان القبول في هذا الشهر ، فاذا كتب لى النجاح فيه تقدمت للامتحان الشفوي امام لجنة . وهذا هو النظام المتبع مع جميع المتقدمين للالتحاق بالمدرسة . وجدى واثق اننى سأنجح . وهو شخصياً كان تلميذا بهذه المدرسة نفسها في سنة ١٩٠٥ . وانا لا اعتقد ان الدراسات ستكون مختلفة كثيراً عن الدراسة بمدرسة الأصدقاء ، ولكنني سأضطر في الغالب للجد ليل نهار ، مدة ثلاثة أشهر على الأقل ، تحت إشراف مدرس خاص . ولذا قد لا اكتب إليك مرة أخرى قبل مضي مدة طويلة ، ولكن أرجو ان تثق باننى افكر فيك طول الوقت ، وفيما كنا نعمله معاً ونحدث فيه ونرسم خططه . وأرجو ان تكون احوالك على ما يرام من جميع الوجوه . وقریباً إن شاء الله سأعود ونستأنف جولتنا معاً . تحياتي الى فؤاد .

وقد سعد ولید كثيراً بتلقى هذا الخطاب وقراه عدة مرات ، في الفصل ، وفي النساء ، وفي بيت عمه بالليل . ولكنه لم يكتب رداً عليه لأن الرد على الرسائل لم يكن من عاقته . وهو متأكد ان صديقه لا ينتظر منه رداً . ويوما ما سيجتمعان بجسديهما وينفذان معاً الخطة التي رسمها معه منير . أما الآن فهي فترة انتظار وترقب واستعداد .

وفي عيد الميلاد تلقى ولید بطاقة بريد تفيد نجاح أنطون في الامتحان التحريري بتفوق . ورد ولید عليه بطاقة ملونة

عليها صورة قبة الصخرة المقدسة ، كتب على ظهرها تحياته وتحيات أصحابه .

ومرت فترة طويلة أخرى قبل أن يكتب أنطون إلى ولید . وكانت رسالته هذه المرة طافحة بشكواه من رعايته جو لندن ، ومن قسوة شتاء إنجلترا ، بحيث أصيب أنطون بالبرد ولم تشاركه الرجة التي لم تنفع في إيقافها مواعد الفحم في حجرة جلوس جده الصغيرة . وحدثه بالتفصيل عن مدرسه الخاص « جيرالد جونز » الذي أصيب بشلل الاطفال وهو في السنة الأخيرة بجامعة اكسفورد ، فانتقلت دراساته وحسار ينتقل في أرجاء البيت والحديقة على مقعد ذي عجلات ، ويتنسى وقته كله في المطالعة ، فلهذه مكتبة ضخمة . وأظهر مستر جونز اهتماماً كبيراً بالشرق الأوسط والبلاد العربية بوجه خاص ، وأبدى عطفاً كبيراً على الفلسطينيين . وكان بنوى قبل مرضه ان يزور تلك البلاد بمجرد تخرجه ، ولكن كارثة مرضه قضت على ذلك كله . إلا أنه وجد في صلاته بأنطون مسروراً بفرصة طيبة للحديث عن فلسطين واحوال أهلها .

ولكم امتلات نفس مستر جونز بالهلع والاستنكار عندما وصف له أنطون المسيرة الرهيبة من الد إلى رام الله . واحتقن وجه الرجل الإنجليزي المثقف بالنفخ والسخط على تلك القوى الشريرة التي تحالفت ضد هذا الشعب المسالم البريء .

وشرح له أنطون بعد ذلك رأى صديقه ولید الذي هاجرت أسرته من بئر سبع ، وكيف أنه يؤمن بقدرة الفلسطينيين على



استرداد أوطانهم وديارهم إذا هم نظموا صفوفهم أحسن تنظيم . وكيف أن بعض كبار السن يرون ذلك أمرا شبيه مستحيل . . فقال له مستر « جونز » :

— وما وجد استحالة يا بني ! لكم شهد التاريخ من إمبراطوريات قامت على البطش والقوة الفاشية ، ثم هزمتها شعوب عزلاء إلا من قوة الإيمان وسلاح الإصرار والتضحية . ولقد رأينا باعينا هذه الإمبراطورية البريطانية تتلاشى بعد بقاء وشموخ ، وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها — وإن كان الهنود الوطنيون الظرفاء يقولون إن الشمس لم تكن تغرب عن الإمبراطورية لأن الله لا يثق بالانجليز لو اسدل عليهم ستار الليل!! — ومع هذا غربت شمس تلك الإمبراطورية العتيقة ، ونحررت الشعوب التي كانت ترسف في قبودها . والرايخ الثالث — رايخ هتلر — الذي كان « الفوهرر » يقدر له البقاء ألف سنة على الأقل ، أين هو الآن ؟ لقد انتهى وصار أثرا بعد عين . . فكيف يداخل أحد الشك في زوال دولة ملققة كإسرائيل ، بحيث يتحرر فلسطين ؟ إن الظلم يقضى على نفسه ، والشّر يأكل بعضه بعضا ، لأن عوامل الفساد والفناء في صميم تكوينه . هذا هو حكم التاريخ ، وهذا هو قياسه الحقيقي الذي لا محيص منه .

ولم يسطر انطون هذه الاحاديث على الورق ، ولم يبعث بها في رسائل إلى وليد ، ولكنه سجلها في قلبه ، وادخرها ليوم يلتقى فيه بصاحبه على أرض الوطن . . للقيام بعمل مشترك .

\*\*\*

ولن ينسى انطون — ما عاش — حائشا وقع له في أسبوع عيد الميلاد ورأس السنة . فقد أخذه جداه إلى بضعة بيوت إنجليزية صديقة في تلك الفترة . . ليشهد جانبا بارزا من الحياة الاجتماعية الإنجليزية . وكان الناس في تلك السهرات الصغيرة يبدون اهتماما مهذبا به ، ويقدمون له أشربة حلوة ، ويسألونه عن دراسته وعن بلاده . وهل بها مدارس إنجليزية على مستوى حسن ، ومنهم من كان يطلب إليه أن يتحدث بالعربية كي يسمع تلك اللغة الغريبة !

وفي إحدى تلك السهرات أقبلت عليه امرأة بدينة ، حمراء الوجه ، يملأ النمشي الكبير محياها . . وقالت له :

— لقد سمعت أنك من اللاجئين . ولذا أردت أن أشد على يدك محبة . . لأننى كنت دائما ذات ميول موالية لليهود ، وانتهر كل فرصة للدفاع عنهم وتأييد حقوقهم . . فقد كانت جدة أمى يهودية . .

وارتبك انطون أمام ابتسامة السيدة وأدرك التباس الأمر عليها ، فقال :

— أنا آسف يا سيدتى . . يعنى . . أنا لست يهوديا . بل مسيحي .

وإذا بالاشراق والتهلل يختفيان من وجه المرأة البدينة ، كأنها ابتلعته الأرض فجأة ، وسالته بحدة :

— الست لاجئا . . ؟

— بلى . نحن لاجئون ، أعنى أسرتى لاجئة . . ولكننا لاجئون فلسطينيون . فقد كان أبى غاسطينيا . . عزيبا !

— ماذا تقول ؟! عربي ؟!

وراحت المرأة تنظر إليه بامتعاض وفزع ، كأنها هو قد قال لها إنه من المصابين بالجذام مثلا ... ! ثم جذبت ذراع رجل كان يتحدث بقرعها إلى فتاة ، وقالت له :

— هل سمعت ما قاله هذا الفتى ؟ إنه يقول إنه عربي ؟!

وراح الرجل ينقل بصره بينها وبين أنطون ، ثم قال :

— وإنه كذلك فعلا . فهو نصف عربي على الأقل . إنه حفيد روبرت ملبي ، وماريان ملبي كانت متزوجة من فلسطيني عربي .

وابتسم الرجل ابتسامة ودية للغلام ثم التفت إلى الفتاة التي كان يتحدث إليها ، وانتهر أنطون هذه الفرصة وابتعد عن المرأة التي ظلت تحدق فيه باستنكار وكأنها رأت عقربا ! ولما روى أنطون هذا الحادث لجده ابتسم الرجل الطيب تلك الابتسامة التي كانت تذكره دائما بابتسامة أبيه ، وقال له :

— إنك ستلقى يا بني الكثير من هذا هنا . فسواد الشعب البريطاني غير المثقف ذل يسمع عن اللاجئين اليهود منذ سنوات طويلة قبل الحرب العالمية . أما اللاجئون العرب فلم يسمع الشعب الإنجليزي عنهم شيئا تقريبا . فإذا قيل أمامهم « هذا لاجئ » ظنوا أنه لاجئ يهودي ، وليس لاجئا من العدوان اليهودي !

\*\*\*

وفي عطلة عيد الفصح كتب أنطون خطبا مطولا آخر إلى صديقه وليد يخبره بانتظامه في المدرسة ، ودخوله التدريب العسكري كي يتعلم التصويب بالبنقية ، وكيفية استخدام



وراحت المرأة تنظر إليه بامتعاض وفزع ، كأنها هو قد قال لها إنه من المصابين بالجذام مثلا ...

الدافع الرشاشة المختلفة ، واشترাকে في سياق اختراق الضاحية . وحديثه ايضا من مدرسه الخاص الذى انتهت مدة عمله معه . ولكنه يزوره كصديق في عطلة الاسبوع .. وان مستر جونز يقترح عليه أن يعمل بعد تخرجه في وكالة إغاثة اللاجئين التى انشأتها الأمم المتحدة . وقد وافق جده على هذه الفكرة ورتب مع ناظر المدرسة إعداده للانتحاق بمدرسة العلوم الاقتصادية التابعة لجامعة لندن للحصول منها على دبلوم في العلوم الاجتماعية ..

وفي هذه الرسالة ايضا ترددت شكوى انطون من جهل زملائه بالمدرسة بأحوال فلسطين . ومعظمهم كانوا يعتبرون كلمة فلسطينى مرادفة لكلمة يهودى ، ويعجبون لوجود عرب في فلسطين ! وكل ذلك بملبعية الحال نتيجة للدعاية اليهودية المتلاحقة ..

وأخبر انطون صديقه بأن روح الزملاء قد بدأت في التحسن ببطء ، وأنه يأمل في التغلب على أفكارهم الموروثة ضد العرب بمرور الوقت . وأن امه قد التحقت بعمل منذ بداية العام في دار للنشر نهتم بأمر المشرق الأوسط ، وتقيم بمسكن في وسط لندن ، ولا تاتى إلى بيت أبويها إلا في عطلة الاسبوع . وأنه أحيانا يذهب إلى مسكنها في عطلة الاسبوع ليقوما معا باكتشاف مجاهل لندن ..

ولم ينس انطون في النهاية أن يؤكد له مواسيق الصداقة ، وأن اليوم أتت لا ريب فيه للعمل معا في ميدان الكفاح الوطنى ، بعد أن تنتهى فترة هذا « المنفى » .

- ٣ -

كان الاعتقاد السائد - لدى جدى انطون ووالدته وأساتذته في المدرسة - أنه « تأقلم » و « تكيف » بالجو الإنجليزى والحياة الإنجليزية على أتم وجه ممكن . ولكن « جيرالد جونز » وحده - بما كان يعرف عن التأقلم والتكيف بصورة علمية وعملية - هو الذى كان يشك كثيرا جدا في حقيقة ذلك التكيف الرائع المزعوم .

لقد كان انطون في ظاهرة أمره فتى « انبساطيا » غير منطو على نفسه ، يشارك في النشاط المدرسى ولا سيما في ألعاب المدرسة وفرقها الرياضية بشئى أنواعها ، ويسهم في التدريب العسكرى بشغف كبير وببذل جهدا كبيرا في مناوراته ومبارياته الشاقة ، ويحرص على الانبسام والدمائة وتقبل النكات اللاذعة بصدر رحب ، وكانت معظم نكات زملائه في المدرسة تنصب على « الشيوخ » و « الحريم » وحياة القبيلة في الصحراء !

ولكن إلى جانب هذا لم يكن انطون يعتبر تلك الروح الاجتماعية الشائعة بين الزملاء ذات صلة ما بالصداقة الخاصة . فبالكل صحاب له ورفاق مرحون ، وهو مرح ودمث مع الجميع ، ولكن ليس له صديق بالمعنى الخاص لتلك الكلمة ، وكثيرا ما كان يذهب إلى رحلات ونزهات في نادى التجديف بالمدرسة .. أو في نادى الطيران صباح يوم الاحد ، أو يزور زميلا في بيته يكون قد أبدى نحوه فهما خاصسا وهو من الطلاب الفقراء الذين يتعلمون بالمجان لتفوقهم - على خلاف

المستوى السائد بين التلاميذ وكلهم من أبناء الميسورين - ويتناول لديه « الشاي الكبير » . وفي بعض الأحيان كان يزور بيت زميل آخر قريب من بيت جده لمشاهدة التلفزيون ، لأن جده لم يقتن ذلك الجهاز المتكرر . وكان اسم هذا الصديق « مايكل لندلي » . وأحيانا كان يذهب معه لمشاهدة أحد الأفلام « الجبارة » - على حد تعبير مايكل - في إحدى دور السينما القريبة من البيت ، ومعظم هذه الأفلام « الجبارة » تدور حول الحرب والمغامرات . ولم تكن هذه الموضوعات تعني أنطون كثيرا ، ولكنه كان يذهب مجاملة لزميله ، ولأن الموافقة أسهل عليه من الرفض أو الاعتراض .

أما الأشياء المحببة إليه حقا فهي التنزه سيرا على الأقدام مع جده في المتنزه العام الكبير ، أو السير بمفرده في الغابة وهو يرسل خوافره إلى بعيد ، حيث يصحب «ونيد» في رحلات ذهنية ووطنية . ويفكر في أحلامهما التي يحس أنها صدق وأكثر واقعية من هذا الحاضر الذي يعيش فيه منفيا ، قليلا وقابلا . . . ويتلو تلك النزهات في المكانة والإيثار نزهاته يوم الأحد مع أمه وزياراتها للمتاحف الفنية ، وأحاديثه النسمة المثيرة للذهن والقلب مع معلمه السابق المصاب بشلل الأطفال « جيرالد جونز » .

ولم يدر بخلاعه طبعاً أن « جيرالد جونز » يمكن أن يحل في قلبه محل صديقه العربي وليد ، لأن جونز كان في الخامسة والعشرين ، وهي سن تبدو لأنطون كبيرة نسبياً بطبيعته الحال . بيد أنه كان يحب تلك الحجرة المبطنة جدرانها من

الأرض إلى السقف بالكتب ، في ذلك البيت الكبير القبيح الشكل . . . ويحب تلك المعاملة السخية التي يعامله بها أستاذه السابق ، وهي معاملة الند للند « التي تخفف عن كاهله الشعور الذي بعدم النضج » ، ذلك الشهور الذي كثيراً ما عانى منه حتى وهو في صدمة ولید بشخصيته الدلغية . بل إنه مع جونز يستطيع أن يكون صاحب اليد العليا ، لأنه يتحدث إليه عن فلسطين وأحوالها ، ويجيب على أسئلة جونز التي يوجهها إليه بطريقة تشمره بأنه مصدر هسام للمعرفة ، وما أحب ذلك إلى نفس أنطون بعد ساعات الدرس الطويلة التي يتلقى فيها المعلومات من أستاذه يعتبرونه جاهلاً على الدوام . ويشعر أمامهم فعلاً بأنه جاهل . وشئنا ما بين هذا الشعور ، وذلك الشعور الذي يوحيه إليه جونز وهو يصفى لإجاباته في تقدير واهتمام .

وكذلك كانت مسر جونز - والدة جيرالد جونز الأرملة - تعامله بمودة وكأنه رجل ناضج ، وتساله رأييه في بعض نوابغ المثليين الإنجليز الذين يشهد أفلامهم أحيانا ، مثل « السير جوينس » الممثل والمخرج العبقري . . . وهو إحساس لا توحيه إليه جدته ولا والدته ، فلا عجب إذا التي تنسبه على سجيته ، واستمتع بشعور بنمو شخصيته لم يتوفر له في بيته ولا في مدرسته .

إنه في مدرسته مطالب دائماً بالتظاهر بالسرور والمرح وسعة الصدر أمام المضايقات والنكات اللاذعة أو السمجة ، حتى لا يقال عنه إنه « انطوائي » . فهو من خوف الانطوائية

( ٢ - الطريق إلى بئر سبع )

في انطواء يتخذ صورة « الانبساط » .. ولا سيما أن اسمه وسجنته وكل شيء فيه يذكر زملاءه باختلافه عنهم في الميت والسلالة والتكوين النفسي والاجتماعي. أما هنا فهو لا يتصنع شيئا ، ولا يحس بحاجة إلى التصنع أو التظاهر .. وعناصر تفردته التي تصيب « عليه » في المدرسة تحسب « له » هنا في بيت آل جوتز مزية يستحق بسببها الرعاية والاهتمام والتقدير . ومع هذا كله لم يغض انطون حتى ولا لجيرالد جوتز بحلمه المقدس حول طريق بنر سبع ، طريق العودة ، طريق النضال . فهذا سر بينه وبين وليد « وليس من حقه أن يوح به لأحد . فطريق بنر سبع هو رمز عقيدته الوطنية التي لا تقل قداسة لديه عن عقيدته الدينية ..

وهذا السر المقدس هو الذي يكمن وراء قلقه وعدم استقراره ، ذلك القلق الذي يخفى تحت سطح ظاهري من المرح والدمانة . وقد استطاع جوتز الشاب المقعد المشدود على مقعده ذى العجلات أن يستشف هذا القلق ويحكم بأن الفتى العربي لم يستطع بعد أن يصل إلى « التأقلم » بالحياة الإنجليزية ، رغم كل هذه الظواهر الخادعة .

إن جوتز شخصا لم يكن يشعر أنه على سجيته وهو في أكسفورد . رغم سمعته بين أقرانه بأنه شاب مرح سليم الطوية . وقد ظل الناس مخدوعين فيه إلى أن حلت به كارثة المرض المقعد ، فحررتة أخيرا من تكاليف النظافة الخادعة إرضاء لمن حوله !

وإن وراء ابتسامة انطون البريئة المشرقة لكثيرا جدا مما لا يخطر ببال زملائه الإنجليز . فهذا الفتى البريء - كأنه

شماس في غرفة المرتلين بالكنيسة - قد سمع بأذنيه منذ سنين صرخات العذارى يفتصبون جنود اليهود .. وصيحات النساء العقيات المحصنات ينتهك حرمن جنود إسرائيل .. ورأى بعينه رجالا ونساء من مواطنيه يشربون بول بعضهم البعض ، ويتقاتلون على الظفر بقطرة منه ! .. شهد بنفسه كيف تجرد الناس من إنسانيتهم تحت وطأة ذلك الاضطهاد الوحشي في البرية . ورأى وجهها لوجه ملك الموت وهو يطارد الناس بطاردة رهيبية مغزعة ! ..

كل هذا كان جوتز يعرفه ، فلم يصدق لحنه واحسده أن انطون يمكن أن ينسى تلك الذكريات المروعة ، أو أن تظاهره المتقن بالاستسلام والانقياد لمشيئة الله يمكن أن يدل على حقيقة حالته النفسية . إن « التأقلم » في هذه الحالة لا يمكن أن يدل على طبيعة سوية خالية من الشذوذ ، بل هو في مثل هذه الظروف دليل قاطع على الشذوذ ، وتبلد الإحساس .

ولذا كان جوتز واثقا كل الثقة أن انطون منصور يحن إلى وطنه فلسطين العربي حنينا ملحا لا هوادة فيه .. حنينا مضاعفا ، لأنه قاسى الانتزاع من جذوره الأصلية في منبته الأولى بمدينة اللد ، يوم تلك المسيرة الرهيبة المشهومة .. ثم قاسى مرة أخرى الانتزاع من وطنه كله ليعيش في لندن بجوها القارص وأحوالها الاجتماعية الفكرية التي لا تمت إلى الشرق بصلة ، ولا سيما أن رحيله من أريحا إلى لندن جاء على أثر فجيعته في أبيه الذي كان يحبه أحمد الحبيب



وقد انتهزت ماريان فرصة إجازة حصلت عليها من عملها  
صحبت أنطون إلى مقاطعة ( بريتانى ) بفرنسا ، لا لشيء إلا  
لتخلص من جو إنجلترا وأهلها وتستمتع بمنظر البحر على  
هواها . وكانت قد صحبت والديها في فترة طفولتها إلى هذا  
الموضع عينه أثناء إجازة حصلوا عليها أثناء خدمة أبيها في  
فلسطين ، فكانت ( سان مالو ) بالذات من الأماكن التي ظلت  
عائلة بذهنها منذ ذلك الحين باعتبارها منتجعا للجمال الطبيعي  
الآخاذ . وإلى هناك صحبت ابنها مع انها كانت تعلم سلفا أن  
أكثر من ثلاثة أرباع مدينة ( سان مالو ) العتيقة ذات الأسوار  
قد تهدمت أو أحرقت أثناء معركة تحريرها في سنة ١٩٤٤ .  
ولكن قيل لها انها جددت بسرعة وأن حصون القرن الثاني عشر  
التاريخية لم تزل على حالها لم يمسسها أذى .

وكانت الرحلة البحرية الليلية إلى هناك مثيرة جدا بالنسبة  
لأنطون الذي لم يركب باخرة قبل ذلك ، وإنما كانت رحلاته  
كلها عبر البحر بالطائرة . وكان تفكيره في أثناء تلك الرحلة  
البديعة منصرفا إلى صديقه وليد . أما أمه ماريان فكان تفكيرها  
منصرفا إلى بطرس منصور ، وهي تتسائل لمساذا لم يرحل معها  
إلى أوروبا مثل هذه الرحلة الجيلة التي تتراءى فيها طيور  
النورس محمولة صائحة فوق رؤوس الركاب ؟ لماذا لم يتجاوزا  
في رحلاتهما بيروت عاصمة لبنان ؟ وكان الجواب الطبيعي الذي  
خطر لها أن رغبتهما لم تتجه هذا الاتجاه ، ولو شاء لما حال  
بينهما وبين تلك المتعة شيء . فإن بطرسا كان يحب بيروت حبا  
جما ، فكان يختارها للنزهة والاستجمام كلما نزعته نفسه إلى  
التغيير . وكانت رغبة بطرس قانونا نافذا على الدوام بالنسبة

لابد أن يكون المرء أبلها أو معتوها حتى تزايل إحساسه  
مثل هذه الكوارث المزلزلة بهذه السرعة وهذا الير الذي  
يتوهمه المخدوعون بمرح الفتى ودمائه . ولكن أنطون منصور  
فتى ذكى العقل والقلب ، مرهف الحس ، فلا يمكن إذن أن  
يكون هذا موقفه الحقيقي . ولابد أن ثمة توترا شديدا تحت  
هذا القناع التمثيلي المتهلل على الدوام . .

كان هذا رأى جيرالد جونز ، وكان أنطون لا يعرف عن هذا  
الرأى شيئا . وكل ما هناك أنه يحس بعدم حاجته إلى التظاهر  
وهو في بيت آل جونز . ولكنه كان يأنس للوحدة أكثر أيضا  
مما يأنس إلى بيت آل جونز . لأنه في وحدته يستطيع أن  
يطلق العنان لخواطره ويتصور نفسه في مروج ( رام الله )  
وروابها أو في كف جبل التجربة عند أريحا ، في صحبة  
صديقه وليد .

وفي أول صيف قضاه بإنجلترا بعد انتهاء السنة الدراسية :  
كتب إلى وليد ، يقول له :

« لقد حظينا هنا ببضعة أيام من الدفء وصلت فيها درجة  
الحرارة إلى ٨٠ فهرنهايت ، فلبس الناس نظارات سوداء  
وداحوا يقولون : « ألا ما أشد هذا الحر ! » . . وعندما أقول  
أصحابي الإنجليز أن الحرارة في أريحا في مثل هذه الأيام تصل  
إلى حد فظيع جدا حتى أن الذباب يموت من وطأة الحر ،  
يظنون أنني أمزح ، ولا يتصورون حرارة أشد من ٨٠  
فهرنهايت ! » .

— نعم . على نحو ما . ولكن الحياة وراء هذه الأسوار مختلفة تماماً عن الحياة التي وراء أسوار القدس . كما أن هذه الأسوار التي تراها أقدم من أسوار القدس بنحو أربعة قرون!

ونزلاً في فندق صغير يقع في شارع ضيق منحدر يكثر فيه المصطفون إلى درجة الإزدحام ، وعلى جانبيه عشرات من حوانيت الفاكهة والخضر ، والمقاهي الصغيرة ، مما ذكره إلى حد ما بجو مدينة القدس القديمة . ولكن ماريان شددت على أنطون كي لا يصرف اهتمامه إلى الشوارع الضيقة ، لأنها لم يأتيا لرؤية الحوانيت والمقاهي والأزقة الداخلية ، بل للتمتع بالبحر وهوائه وأماجه الزبرجدية .

وأوشك الفتى وأمه أن ينسيا نفسيهما وهما يتطالعسان إلى جمال البحر الصافي ، بخضرتة الأشجاية ، من فوق تحصينات المدينة التاريخية . والحق أن المنظر من هناك لا يمله المرء ولو قضى في ذلك ساعات النهار جميعها .

وعندها انخفض مستوى الماء بانحسار المد ، ساراً ما إلى الجزيرة الصغيرة التي يواجه فيها البحر الصاحب اللامقاهي ضريح من الجرانيت دفن فيه الكاتب الفرنسي العظيم « شاتوبريان » ، تحف به الأزهار البرية الكثيرة التي يحل الهواء غيرها المسكر مع كل نسمة من نسائمه ، مختلطة برائحة العشب البحري المتراكم .

وعثراً على فجوة بين الصخور بعيدة عن مهب الريح يهيم فيها العشب البري والأقحوان

لها ، فلم تفكر قط في مخالفتها أو اقتراح شيء غير الذي خطر بباليه . ولكن لو أن المتأدبر أمهلتها بضع سنوات أخرى لحضر معها وسع أنطون إلى انجلترا لإتاحة فرصة إتمام التعليم لوحدهما ، وعندئذ كانت ( سان مالو ) وما إليها من الأماكن الجبيلة في أوروبا حرة أن تفوز باختياره عوضاً عن بيروت . . ولكن هذا كله لم يسمح به الزمن لأن « النكبة » حطمت قلب بطرس قبل الأوان . .

ولاحظ منها نظرة إلى أنطون وهو واقف بجوارها مستنداً إلى سياج الباخرة ، والهواء يعث بشعره الأسود الغزير . ونظرة جد واهتمام تتراءى في عينيه ، فقالت في نفسها :

— هذا أنطون بن بطرس منصور . . وليس الفتى الذي كان يرتدي منذ أيام فلالل قبعة المدرسة الإنجليزية ولا يكاد المرء يميزه بحال من الأحوال من سائر أبناء الإنجليز أقرانه في السن . هذا أنطون صديق وليد الذي ذهب معه في عيبس الفصح قبل المنصرم إلى الخليل ، وقد أطلق الآن من أسر الحياة الإنجليزية وشكليتها وارتد إلى عنصره الأسيل . إنه بعينه أنطون الذي سيعود يوماً ما إلى مسقط رأسه وأرض ميماده ووطن أبيه وأجداده العرب . .

وعندما طلع النهار وخرجوا من قهرتهما بالسفينة ليلقيا نفسيهما تحت أسوار ( سان مالو ) تقريباً ، صاح أنطون في حبور :

— ألا ما أشبهها بمدينة القدس !

وتنهذ أنطون بارتيساح وهو يملأ عينيه وصدره من البحر وهوائه ، وقال :

— ألا ليتنا لا نعود إلى لندن !

— حقاً ؟ لقد حسبتهك تحب لندن بما لك فيها من اصدقاء وزملاء في المدرسة ، وقرق رياضية ، والمفتزة العام الكبير ..

— كل هذا حسن ، ولكنني أشعر بانني لا أنتهي إلى شيء من هذا .

— ولكنك يا بني نصف إنجليزي !

— أعلم هذا . ولكنني لم أولد هنسك . ولم أعش في تلك الديار قبل هذا العام ..

— ولكنك أقل انتفاء إلى هذا المكان — من أرض فرنسا — الذي لا تربطك به ولو آصرة اللغة .

فبادر يرد عليها ، قائلاً :

— بالعكس ! إن انعدام آصرة اللغة من شأنه أن يجعل الأمر أسهل على نفسي !

— لماذا ؟

— لأنني في هذه الحالة سوف لا أكون مطالباً بالاختلاط والاندماج الاجتماعي الكلي .. والحقيقة أنني لا أشعر في جميع الأوقات برغبة في الاندماج الاجتماعي .

— ادرك ماذا تعني « ولكن لابد لك من التعليم كما تعلم .

— لقد كنت أعلم على ما يرام وأنا في ارام الله !

— ولم يكن في وسعي أن أبقى في الأردن يا أنطون ، وأبوك نفسه في الليلة السابقة لوفاته أوصاني أن ..

وتهدج صوته وراحت تلمس منديلها في حقيبته يدها وهي تحاول عبثاً رد طوفان الدموع التي أنبجست فجأة .. فاستولت على أنطون الندم ، وقال لها :

— واهالي ! لقد سببت لك الأسى في هذه اللحظة الجميلة .

أرجوك ألا تحزني وتبتئس ! إنني على خير حال في لندن « وكل ما هناك أنني أشعر بالحنين إلى وطني أحياناً « واشتاق إلى وليد . ولما وجدت نفسي هنا بعيداً عن إنجلترا « تجدد عندي هذا الحنين والشوق ..

— أعلم هذا يا ولدي . ولكن تذكر أنك ستتمكن في الخامسة عشرة من عمرك هذا العام ، وبعد ثلاثة أعوام أخرى ستمود إلى الأردن إن شاء الله ! وهي ليست بالمدة الطويلة ، اليس كذلك ؟

— كلا في الواقع ..

ونهض قائماً على قدميه ومد يده إلى أمه ليعينها على النهوض ، قائلاً :

— هيا بنا نتم جولتنا حول الجزيرة ثم نعود إلى التحسينات لنحظى هناك بتناول « الجيلاتى » في شرفة المقهى تحت المظلات الكبيرة !

وانجابت أمام هبات هواء البحر الطلقة سحابة الأسى ، ولم تبقى أمامها سوى صفحة الحاضر البهيج ..

— ٤ —

كان مقسوما لرحلة ( سان مالو ) ان تظل ذكرى مفردة في ذهن انطون وامه ، لانها كانت الرحلة الوحيدة لهما في العطلات . فقد قرر « روبرت ملبي » ان غلاما في الخامسة عشرة لا ينبغي ان يقضى عطلاته ملازما لأمه على هذا النحو ، ووافقت ماريان اباهما على مضض . .

وتغير بالفعل مآل حياتهما . فعمدما حل الصيف ، التالى كانت ماريان شديدة الانتماء في عملها . اما انطون فذهب مع رفاقه في الحرب العسكرية إلى معسكر صيفى ابتداء من شهر يوليو ، وكان قد حصل قبل ذلك على « شريط » صار مصدر اعتزازه ورهوه ، وجعله يشعر بأنه أكبر سنا بكثير من الغلام الذى ذهب منذ عام واحد إلى ( سان مالو ) في صيد والدته . لقد صار انطون بطرس منصور « اومباشيا » ، ثم لم يلبث ان صار « جاوبشما » ، الأمر الذى جعله يبرز مسدده إلى الامام ويبدو أكثر ثقة بنفسه في كسوته الصفراء . . . وقد ساعده ذلك على عدم اللجوء إلى النظار كى يكسب تقدير رفاقه ، لانه صار الآن « شيئا مذكورا » بغير حاجة إلى استرضاء احد .

اما ماريان فاندفعت في قسم التحرير بصحيفة الشرق الاوسط التى تعيل بها . واستفادوا من معرفتها لغة العربية فبعثوا بها في الصيف إلى بيروت لجمع معلومات معينة ، ثم طارت من هناك إلى الكويت أثناء وجود انطون في معسكر التدريب . ومن الشرق كتبت إلى امها تخبرها انها سوف

لا تعود إلى إنجلترا إلا بعد عيد الميلاد . وطلبت منها السماح لانطون بالذهاب إلى سويسرا في الشتاء للتمتع بالانزلاق على الجليد مع زميله لندلى في عطلة عيد الميلاد ورأس السنة .

وبطبيعة الحال رحب انطون بهذه الفكرة ترحيا كبيرا ، لانه كان زاهدا جدا في قضاء عيد الميلاد في إنجلترا بعد تجربته الاولى . وفي الوقت نفسه كان يحب « لندلى » كثيرا — وهو اكبر منه سنا بعض الشيء — لانه يشاركه الاهتمام بمعسكرات التدريب ويذهب معه في ايام الصيف في ساعة مبكرة للسياحة قبل موعد الدراسة في بحيرة مسفرة محاطة بالأشجار الكثيفة قرب طاحونة الهواء في المنزه العام . والماء في تلك الساعة يكون باردا كالثلج ، والرحلة إلى هناك على الدراجة تيمث النشاط والمرح . وبعد السباحة يسودان معا إلى بيت جديهما لتناول الإفطار بشهية عظيمة .

ولم يقصر انطون في واجباته المدرسية رغم هذا النشاط الرياضي المتنوع . ونجح بتفوق في امتحان آخر السنة . وبذلك لم يبق أمامه الامتحان على التخرج . .

\*\*\*

لكن ماريان عادت في تلك السنة قبل عيد الميلاد ، وبذلك انفى انطون رحلته إلى سويسرا وقضى العطلة مع امه وجديه ، إلا انه لم يذهب معهم إلى السهرات العائلية، بل قضى سهرات مع رفاقه التقى فيها بفتيات كثيرات، بيد انه لم يشعر بارتياح إلى صحبتهن . ولما وجدته خجولا مرتبكا في محادثتهن ، متحفظا في حديثه وحركاته معين ، استصغرن شأنه واعتبرنه « تلميذا » غريبا في أمور الغرام .

وتجول مع والدته عشية عيد الميلاد في ميدان الطرف الاغر واستمتع للترنيل الشجي ، واستمتع بالشجرة السكندنافية العملاقة المعدة في الميدان بمناسبة عيد الميلاد . وفي صباح عيد الميلاد ذهبوا جميعا - بما فيهم جده - إلى الكنيسة .

وكانت هذه الفترة بداية انحصار في صداقته بلندلي - الذي أبدى في حفلات عيد الميلاد اهتماما واضحا بصحبة الفتيات - لا عن اهتمام بواحدة منهن بالذات ، بل كان « الجنس » في مجموعته يستهويه بصورة خارقة لم يسترح إليها انطون !

اجل انها لم يزا على عهدها من السير معا أثناء فترات الراحة بين الدروس ، ولكن التقاءهما خارج المدرسة قل كثيرا عن ذي قبل ، لأن انطون شعر بعدم التأييد او عدم القدرة على مجاراته في اهتماماته الجنسية الجديدة . بيد ان ذلك لم يثقل على نفس انطون ، لأنه من جانبه استحدث لنفسه اهتماما من نوع جديد خاص به ، وهو الاهتمام بالكتب . لقد كان يشعر قبل الآن أن عدم استقراره يمنعه من قراءة أي شيء سوى ما تتطلبه دراسته من الكتب العلمية . ولم يكن لديه متسع من الوقت للقراءة الخاصة كهواية . وحتى في تلك الأوقات التي لم يكن ذهنه فيها مركزا على موضوعات الدرس كان خياله يشرذم به دائما إلى روابي فلسطين وآجامها وتلالها وخمائلها ، فيتذكر تارة آياه في أريحا ، وتارة أخرى يتمثل وليدا في ( رام الله ) . . . او تتراءى له طريق . . . بر سبج !

ولكن في عيد الميلاد من هذه السنة تسدم إليه أستاذه « جيرالد جونز » المجلد الأولى من مذكرات شاتوبريان ،

بمناسبة زيارته السابقة لسان مالو حيث ولد الكاتب العظيم حيث زار مع ماريان ضريحه ، وقال له :

— لقد كان شاتوبريان غلاما يشمر بوحشة ووحيدة عظيمة ، وكان مرهف الحس بشبوب الخيال ، وقد يروق لك ان تتعرف على معالم طفولته وصباه ، وسترى كيف كان أبوه القاسي يرغبه على النوم بفردة فوق قمة برج من أبراج القلعة العتيقة . وكان الشائع بين الناس أن ذلك البرج تسمكته الأشباح والأرواح الشريرة . ولا سبيل للوصول إلى قمته إلا عن طريق مشارف يعشش فيها البوم الذي يتطايير في الظلام وهو يرسل نعيقه الكثيب الرهيب مختلطا بهزيم الرعد وزمجرة رياح الشتاء وهدير الموج في البحر النائر !

والحقيقة ان جيرالد اثار اهتمام انطون بالكتاب عن طريق إثارة خياله ، فراح الفتى يقرأ الكتاب بنهم عظيم ، ولم يستعجب كثيرا لما قرأه في تلك الصفحات من شدة حنين « فرانسوا رينيه شاتوبريان » الصغير إلى الحب الانثوي ، فما كان هذا الحنين ليجد صدى في نفسه ، ولكن مخاوف الغلام العسير ، وخجله « وتردده ، وشكوكه ، وجدت صدى عظيما في نفس الفتى العربي المغترب ، وكذلك الإحساس بالعيب الباهظ الذي يلقيه على كاهله الواهن هذا العالم غير المفهوم !

وقرر انطون أن يذهب مرة أخرى يوما ما إلى ( بريتانى ) فيزور قلعة « كومبرج » ويعبر تلك المشارف الرهيبة التي اجتازها في الظلام - ليلة بعد ليلة - ذلك الفارس الفرنسي الصغير « شاتوبريان » وهو يقاوم النزاع والارتباك . وأغضى



انطون بهذه الرغبة إلى أمه . فوعده بان يذهب إلى هناك في عطلة عيد الفصح ، ثم تأجلت الرحلة إلى عطلة الصيف ، ولان الظروف حالت دون تنفيذ هذا الوعد على نحو او آخر . ولم يضر ذلك فظنون كثيرا . لانه تجاوز مرحلة ذلك الكتاب إلى كتب أخرى استأثرت بتفكيره . فقد اهتم بكتب المغامرات الحقيقية والرحلات ، ومن أهمها رحلة جزر البيرايه للدكتور جونسون . وقد استعار هذه الكتب من مكتبة «جيرالد جوتز» . ثم نقب في مكتبة جده عن كتب أخرى فوجد كتابا عنوانه «مسعد الصياد» بقلم «بكتول» . ومسعد هذا رجل شجاع لم يتردد في ان يموت شهيد الإسلام على صورة لم يتمسالك انطون نفسه من الهتاف لها بحماسة عند الفراغ من تلاوة قصته . وسأل انطون عن هذا المؤلف «بكتول» ومن عساه يكون . وهو يجد في كتبه وصفا صادقا لحوال فلسطين منذ أواخر القرن الماضي ، فقال له جده :

- إنه ابن فني إنجليزي . وقد أحب الشرق العربي وفلسطين وسورية واعتنق الإسلام وتعلم العربية وبلغه فيها وترجم القرآن إلى الإنجليزية . وأدرك ان الصهيونية لا يمكن ان تنتعش في فلسطين إلا تحت حماية الحراب الإنجليزية . وقد كتب ذلك صراحة في سنة ١٩٢٩ . وقد لفت قصته «مسعد الصياد» راجا كبيرا بين القراء الإنجليز . ولكنه صار الآن على التدمير . وهو بلا شك من أعرف الناس بأحوال العرب وأكثرهم حبا لهم . ولكم اناره الظلم الذي يصيب على عرب فلسطين مسببا بالتعاون المتواطئ بين الحكام الإنجليزي

والصهيونية . وقد مات الرجل في سنة ١٩٣٦ ، وكانت ترجمة القرآن آخر أعماله ، وكان القدر رحيمًا به حين جنبه عذاب مشاهدة التكية التي حلت بفلسطين .

واكتشف انطون ان أمه تعرف «بكتول» وقرأت كتبه ، وكانت تعجب كثيرا بكتبه عن الشرق ويقصصه الشرقية ، أما قصصه الإنجليزية فلا تعجبها على الإطلاق . و «مسعد الصياد» في نظرها احسن ما كتبه عن بلاد العرب ، لان ذلك الكاتب لم يكن يعرف شيئا عن المتعلمين العرب . وكانت كل معرفته بالبسطاء والاميين ، فقد كان يفهم روحهم وعقليتهم جيدا .

وكان المفروض بعد انتهاء انطون من المدرسة الثانوية الا يدخل مدرسة العلوم الاقتصادية لدراسة العلوم الاجتماعية إلا بعد تمضية سنة في التمرين المعلى على الخدمة الاجتماعية ، ففكر في ان يمضى تلك السنة من التمرين والخبرة في المملكة الأردنية بين مواطنيه اللاجئين ، كي تكون هذه السنة فرصة له للاجتماع بصديقه ولید . ولعلهما يستطعيان في غضون تلك السنة التسلل إلى بئر سبع ، ولكن بعد ذلك ما يكون . وأفضى بفكرته إلى جده الذي قال له :

- لست أرى ما يمنع من ذلك ، بشرط ان توافق أمك على هذا السفر بطبيعة الحال . فانها قد لا تميل كثيرا إلى فراقك سنة كاملة .

- ولكنها ستسمح لي بالسفر إذا أنت جلدت فكري ،  
وقلت لها أن أبى كان حريا أن يقرها لو كان على قيد الحياة  
ليس هذا رأيك يا جدى ؟

فنظر روبرت ملهى إلى وجه حفيده المتلف ، ثم قال :

- بللى ! اظن هذا . فقد كان يريد لك ان تظل عربيا . وإن  
كان حريصا على أن تتلقى تعليمك في إنجلترا . ولكنه من جهة  
أخرى ما كان يحب لك أن تهجر أمك ..

- ولكنى سوف لا أهجروها يا جدى . فلسوف أعود في  
نهاية السنة وسأبقى هنا سنتين لتلقى المحاضرات في  
الجامعة . ثم أنها لا ترانى أثناء العام الدراسي إلا مرة واحدة  
في عطلة الأسبوع . وفي بعض الأحيان تمر العطلة الأسبوعية  
من غير أن ترانى ، حين تكون مشغولة أو مسافرة لتتسقط  
الأخبار ! أنا واثق أنها لن تنامح .

- سنبحث الأمر كله يوم الأحد . ولكن خبرنى هل فكرت  
فيما ستصنعه هناك في الأردن ؟

فاحمر وجهه ، وقال :

- خطر أبى أن أساعد في إدارة معهد العميان ببيت لحم حيث  
يقيم صديقى أمين . واعتقد أن فى وسعك أن تعهد لى ذلك ، بما  
أن معهد بيت لحم تابع للجمعية التى تشرف على معهد يافا  
حيث كنت تعمل أنت فيما مضى . ولا سيما أننى أعرف الشيء  
الكثير عن العميان بسبب معاشرتى الطويلة لأمين كما تعلم .

- فكرة طيبة فعلا ، بل طيبة جدا . سأذهب إلى مقر  
الجمعية وأتحدث إليهم فى هذا الموضوع منذ الآن ، فهذه  
المسائل يستغرق الانتهاء منها وقتا طويلا إلى أن تتم الموافقة  
.. فهناك مستويات كثيرة للجان كما تعلم .

- شكرا لك . وثق أنى يستعد للقيام بأى عمل هناك .  
كان صغيرا ، ولن أخذك ، لأنى فى الحقيقة مهتم جدا بالعميان  
ولا سيما أن « أمين » سيكون معى طول الوقت . وسيكون فى  
وسمى أن أرى صديقى خالدا فى أوقات فراغى .. الا ما  
أبدع هذا !

- ولكن ما الذى جعلك تفكر فى هذه الأمور كلها ؟ هل  
أصابك نوبة أخرى من الحنين إلى الوطن ؟

- اوه . إن المسألة فى مجموعها معقدة كما تعلم . ويدخل  
فيها عدد كبير من العوامل ..

- مفهوم . مفهوم . إن فلسطين طبعاً حياتك الحقيقية .  
ولقد كان فلسطين حياتى الحقيقية يوما ما . ثق أنى سأسأل  
كل ما أستطيع لتحقيق هذا الأمل إن شاء الله !

- إن شاء الله ..

- ٥ -

جری هذا الحديث في حجرة الجلوس في مساء من امسيات نوفمبر الباردة ، والضبباب يزحف من التنزه العام مشللا إلى داخل البيت على الرغم من التوفذ المقلقة والستائر المسدلة . وقد جلس مسرر ملهى في مقعده الوثير العتيق بجانب النار ، وجلس شائلته انطون . اما «الزبيث» فكانت خارج البيت تحضر اجتماعا لإحدى اللجان المحلية التي تشترك فيها . ولذا اتيح لانطون في هذا المساء ان يسترخى في جلوسه كما يشاء . ان يطعم شمر ان المدفأة بكل من الخشب ليجول بينها وبين الخمود . اما جده فهو على عادته معه لا يبدى اعتراضا على تصرف من تصرفاته ، بل يشعر انطون في قرارة نفسه ان جسده يضمهر التشجيع له على انواع السلوك التي تضيق بها جدته ! وإذا فهو يشعر بالآفة الشديدة وسكينة النفس حينما يخلو إلى جده في الدار على هذا النحو ، بينما جدته تقضى وقتها في الخارج .

مسكينة هذه الجدة ! فهي من ذلك الطراز من الناس الذي تشعر انه يجبك اكثر بكثير مما تحبه ، وكنت حريا ان تحبه بمزيد من القوة والعبق لو ان حبه لك خفت حدته قليلا !

وتخيل انطون ان الجدة عادت من الخارج وان اول ما صنعته انها بددت تلك العتمة الحبيبة إلى النفس ، وما تفيض به من حرارة وإنسان ، فاقودت المصاييح الشديدة وصاحت بهما في استنكار كعادتها :

— لماذا تجلسان هكذا في العتمة ؟ وهذه النار المتأججة !  
إن الحرارة هنا شديدة لا تطاق !

ويسرعة بروح كل منهما يرفع الوسائد الصغيرة من وراء ظهره ويبعدها إلى مكانها المرسوم من حجرة الجلوس . اما الجدة فمتناول صحف المساء الملقاة حيثما اتفق فوق احد المقاعد ، وسرعان ما « ترتبها » في مكان خفى عن الانظار كالعادة !

ويعقب ذلك قرصة مالوفة ، وصليل الاواني الخزفية « لان الجدة تصنع الشاي » وبعد الانتهاء من صنعها ، تملأ قدر الماء كعادتها كل ليلة لإعداد الماء الساخن الذي تملأ به الزجاجات لتدفئة أسرة النوم .

وكالعادة كل ليلة أيضا . تتوقع الجدة من انطون بعد تناول شايه وبمسكوبته ان « ينسحب » إلى حجرته بعد ان يذهب إلى المطبخ لياخذ زجاجة الماء الساخن . ولكن الوقت لم يكن قد جاوز الثامنة مساء بكثير . ولم تكن الجدة قد عادت بعد . وليس من المنتظر ان تعود قبل ساعتين . وفي وسعه هو وجده ان يتحدث ما طاب لهما الحديث او يصمتا ما طاب لهما الصمت ، فصيتهما مانوس كحديثهما او أشد أنسا . اما الجدة فلا تعرف الصمت معنى . إلا إذا كان المرء بطالغ او يكتب . اما في غير هاتين الحالتين فهي تنتظر من كل إنسان ان يتحدث في شيء ، أي شيء ، حتى ولو لم يكن شمة ما يستدعي الكلام . وللهذا السبب أيضا كانت تستخدم الراديو قبل ان يتقدم يمكن - لسماع نشرات الاخبار على الخصوص في الليالي الجوية . اما

الكلام فلم يخلق له الراديو ، وإنما خلقت له السنة الناس ! .  
في حين كان الجد ينتهز فرصة خروجها من البيت ليدبر مآتيده  
ويتلمس البرامج الموسيقية الجميلة من بروكسل أو لكسمبورج .  
وما أشد ما كان بأسى على أنه لا يستطيع التقاط إذاعات عمان  
والقاهرة !

وفي ذلك المساء كان مدار حديثهما عن سفر أنطون إلى  
الأردن . وكلها أوغلا في مناقشة الموضوع بدا لهما ممكن  
التنفيذ . وارتفعت روح أنطون المعنوية ، حتى أنه صاح :

— لم ثبق إلا سنة واحدة ! اتنن يا جدي أنه سيكون في  
وسمى بعد ذلك أن احتفل بأعياد الميلاد في بيت لحم نفسها ؟  
— ربما . ولكن والدتك قد تستاء ويتأذى شعورها .  
ولا تنس أيضا موقف جدتك من هذا التفكير !

— آه ! لقد حظيت « ماما » بعيد الميلاد في الكويت عندما  
رافقها هذا !

— ولكنها لم تمكث هناك سنة كاملة . اسمع ! هيا بنا  
نتصل بها الآن تليفونيا ونحاول الاتفاق معها على المسألة  
مبدئيا ... !

وكانت ماريان في شقتها الخاصة ، وقد أدهشها أن تتلقى  
حديثا تليفونيا من والدها ، وكان أول ما خطر لها أن مسورا  
أصاب أمها أو أنطون . ولكن والدها صرف عن ذهنها هذا  
الخطر بالخوض مباشرة في الموضوع :

— ماذا ترين في قضاء أنطون سنة العمل التدريبي في  
الأردن ، وربما كان هذا في مدرسة المكوفين ببيت لحم ؟

واجفلت لأول وهلة ، ثم شعرت بضيق ، فقالت :  
— وهل لا بد لنا من البت في هذه المسألة الآن ؟ لن تكون  
بنا حاجة إلى ذلك إلا في السنة التي بعد التالية !

— هذه المسائل يستغرق تدبيرها وقتا طويلا ، والفكرة  
مستولبة علينا أنا وأنطون .

— أهي فكرتك ؟

— بل فكرة أنطون . ولكنها تبدو لي فكرة مليية .

— اتعني أنه هو الذي فكر في هذه الخطة التي تبتيه بعيدا  
عن البيت سنة بطولها ؟

— إنه ليس طفلا يا ماريان . ثم إنه في مقدورك عند  
القيام بإحدى أسفارك الصحفية إلى الشرق الأوسط أن تترجي  
على القديس لقرية .

— لست أحب أن أذهب إلى القديس مرة أخرى . وأنت  
تعرف شعوري أنك أنت أيضا لا تحب هذا . فلماذا يريد  
أن يذهب إلى هناك ؟ لقد كان الاتفاق فيها بيننا أن يقضى في  
الأردن عطلة محدودة قبل أن يتسلم عمله الذي سيشرع فيه  
هنا . وينبغي أن يكون هذا حسبه .

— إنه يشعر بالحنين إلى وطنه يا ماريان !

— إن وطنه في الوقت الحاضر هنا .

— وهل نسبت أنه ابن بطرس منصور ؟ إن وطنه فلسطين !

— لم يعد لهذا الوطن الآن وجود .

— لا . بل الضفة الغربية لم تزل قائمه ، حيث نابلس ، ورام الله ، وبيت لحم ، واريحا ، والخليل . وفي إمكان المرء ان يحن إلى الجزء ، إن أعوزه الحنين إلى الكل !

وعندئذ قالت ماريان في صبر نافذ : « ليس في وسعنا ان نقاشي هذا الموضوع عبر امسلاك التليفون . فابقه حتى احضر يوم الأحد » .

— ولكن انطون لن يواتيه النوم ما لم يعرف أنك توافقين على فكرته من حيث المبدأ !

وتوسل إليه انطون « قائلا » : « دعني اكلمها ! » .

فقال لها أبوها : « انطون يريد ان يكلمك بنفسه » .

— أرجوك يا أماء ان تقولى نعم ! أرجوك !

— هل تكره إنجانثرا إلى هذا الحد ؟

— أنا لا أكره انجلترا .. انت تعلمين تمام العلم انى لا اكرهها ! ولكنى أريد أن أرى وليدا وأميئا وعمى فريدا وسائر الأقارب . انى إن ذهبت اليهم في نهاية العام القادم سأكون قد سلخت بعيدا عنهم أربع سنين ؟

— كثيرا ما يظل الناس بعيدين عن أوطانهم عشرين سنة ، أو ثلاثين ... بل العبر كله أحيانا !

— لا أستطيع يا أماء ! هذا فوق مقدورى . لأموتن لو فعلت ! أرجوك يا أمى الحبيبة ان تقولى نعم !

وشعرت ماريان على الفور أنها خسرت الجولة ، فقالت : « ليكن . ما دام هذا مطلباً عزيزاً عليك إلى هذا الحد . والآن دعنى أكلم جدك من فضلك » .

— أوه . احبك يا أمى ! احبك . احبك ! .. ها هو جدى . وقالت ماريان لأبيها : « لعلك ادركت انى انقذت لرغبتاه ، ولكنى غير راضية بنفسى . فانا واثقة أنها غلطة .. » .

— لست أدري كيف يمكن أن تكون كذلك يا عزيزتى . — دعنا من الكلام في هذا الآن . وسأحضر للنداء يوم الأحد إن شاء الله .

— إن شاء الله . وطابت ليلتك يا عزيزتى .

ووضع « ملبى » المسامح ، ونظر إلى حفيده وابتمسم كل منهما لصاحبه ، ثم قال ملبى : « سيكون كل شيء على ما يرام .. انها في الوقت الحاضر غير متحمسة للفكرة ، ولكننا سندخل الطمانينة على نفسها يوم الأحد عندنا تحضر » .

فصاح انطون : « بل هذا رائع . رائع جدا ! كم كنت أتمنى لو جئتم معى ، انت وماما وجدتى .. فنعود كلنا معا إلى الوطن .. » .

أما ماريان فلم تتحرك من جوار التليفون بعد ان وضعت المسامح ، بل دفنت وجهها في يديها ، واندفعت تبكى ..



- ٦ -

أما « الزبيث » فكانت صريحة في معارضتها لمشروع سفر انطون إلى الأردن . وأذى شعورها أن يفكر انطون مثل هذا التفكير ، وأغضبها أن يكون جده روبرت ضالعا معه فيه ، وأن تكون ماريان من الضعف بحيث لا تقف في وجهه هذا المشروع وقفه حاسمة ! . لقد كانت الجدة موقنة أن انطون لو عاد إلى الأردن وقضى هناك سنة كاملة فسيكون في ذلك القضاء المبرم على كل ما بذل في السنوات الأربع من جهود في سبيل تأقلمه بالطبائع الإنجليزية ، وسيتعين الابتداء في تلك الجهود من جديد ، حينما يرجع إلى إنجلترا . ولكن هذا الذي ساورها لم يستطع أن يغير من الموضع شيئا ، لأن الأم والجد كليهما لم يجدا غضاضة في شعور انطون بعروبتة وحرصه على تجديدها ، ولا تثريب عليه إن هو غلب عروبتة الموروثة عن أبيه على ميراثه عن أمه .

وكانت الجدة تتمنى لو أنه أبدى شيئا من الاهتمام بالفتيات وقد صار الآن في عامه الثامن عشر . فمن أعجب العجب أن شيئا من أعراض الفتيان في تلك السن لم تظهر عليه . وهو أمر يدعو للراء ، لأنه لو تعلق بفتاة لطيفة لاستطاع هذا الهيام أن يثنيه عن الرحيل إلى الأردن ! . وداعبها الأمل في أن يلتقي في حفلات عيد الميلاد القادم التي يقيمها زملاؤه في المدرسة بفتاة لطيفة من هذا الطراز الجميل الرقيق المذهب . ولعلها تكون شقيقة أحد هؤلاء الزملاء .

ولكن عيد الميلاد أقبل ثم ولى من غير أن يجد في الأمر جديد . ولم يشعر قلب انطون بشيء من الخفقان ، اللهم إلا خفقان اللهفة والتمنى أن يقضى عيد الميلاد التالي في بيت لحم !

لكن الجدة لم تبال ، بل تمتعت حين يأتي الربيع ويكون انطون قد اقترب من تمام الثامنة عشرة ، أن تتحرك فيه نوازع الحب . . نعم « فلا بد أن يقع في هوى فتاة ما عما قريب » سيما وأن منظره وفتنته لابد أن يجتذبا الفتيات الإنجليزيات ، ومن طبائع الأشياء أن يستجيب قلبه الشاب لمحاسن إحداهن !

وراحت مسرعة ملبة تطيل التفكير في تلك الفتاة الموعودة . وفي مرجوها أن تكون ابنة إحدى الأسر التي يعرفها آل ملبي ، وأول صفاتها أن تكون « سيده » بمعنى الكلمة ، يلتقى بها انطون في إحدى الحفلات العائلية الصغيرة ، أو إحدى حفلات الكنيسة ، أو إحدى الأسواق الخيرية التي تقيمها الجمعيات الكثيرة التي تسهم فيها مسرعة ملبي بنشاطها الكبير . واسوف ينشأ الحب بينهما -- غيما تتخيل -- من أول نظرة . وعلى مهل تتطور العلاقة بينهما إلى خطبة . ثم بعد سنة أو سنتين يعقد قرانهما في الكنيسة . وسيكون حفلا بهيجا لن تدخر الأسرتان وسعا ولا نفقة في إضفاء الأبهة والمزج عليه . وفي الوقت المناسب سبرزق العروسان الشابان بطفلين أو ثلاثة . وهكذا يستقر انطون بعد قلق ، ويخلد إلى حياة إنجليزية بمعنى الكلمة ، ويتبخر من ذهنه كل أثر لخصالات الصبا التي تحفزها للتفكير في العودة إلى وطنه العربي !

ولما لم تستطع مسرعة ملبي الخروج في حديث هذا الحلم

العزيز عليها مع زوجها روبرت ، انتهزت أول فرصة ففاحت ابتغيا ماريان في ذلك . ولكن ماريان أم وليست جدة . فلم تكن متعجلة مثل أمها على أن يصل ابنها - وهو في السابعة عشرة من عمره - حباله بحبال فتاة تستأثر به مدى العمر . وقالت لأمها بصريح العبارة ، أن الطبيعة ستأخذ مجراها في أوانها المناسب من غير أن تعنيا نفسيهما بالقلق والتفكير في الأمر قبل الأوان .

وكانت لهجة ماريان حازمة ، ولا تظلو من نفاذ الصبر والضيق . ولعلها كانت مدركة - في أعماق سريرتها - أن نقصان الجانب الغزلي عند ابنها انطون ، راجع في المحل الأول إلى أن قلبه مشغول بحب كبير أخذ عليه مجامعه . وذلك الحب ليس موضوعه امرأة ، وإنما موضوعه حلم مسرف في الخيال ، ولكنه مسرف في الجمال والسحر . إنه حلم العودة إلى الوطن الذي تسرى نملؤه في عروقه وخلاياه !

\*\*\*

ولكن شاء القدر عقب هذا الحديث بين الجدة والأم بوقت قصير ، أن يتعلق انطون بفتاة كان يقابلها منذ بضعة أسابيع ، في الخفاء !

وكانت ظروف التقائه بها حربة أن تروع جدته ، لأنه لم يتعرف بها في كنيسة ولا حفل ولا جمعية ، بل تعرف بها في .. الطريق العام !

نفى ذات يوم من أيام أغسطس الرطوبة الحارة ، شعر انطون بعد الظهر بالاختناق ، فوضع في جيبه كتابا من كتب

الاقتصاد ، وانطلق إلى المتزده العام ، ينشد نسمة عذبة من الهواء . وكان عدد الرواد قليلا في تلك الساعة ، وصف المقاعد الخشبية المواجهة لطاحونة الهواء خاليا ، غتخير المقعد الأوسط ، وجلس عليه مسترخيا بضغ دقائق ، ثم أخرج كتابه من جيبه ، وشرع يطلعه في غير استغراق .. وإذا به يسمع صوتا أنثويا ، يقول له :

— عفوك !

فرجع بصره ، وإذا بفتاة سوداء الشعر ترتدى ثوبا عليه رسوم أزهار قاتعة اللون ، تنقف بجوار مقعده ، ولت نظره كثرة الكحل في عينيها ، وغزارة أصباغ شفثيها . وبروز صدرها الناهد بروزا غير مألوف في بيئته ، تحت سداد ثوبها الضيق .

— عفوك ! هل هذا معطفك الواقى من المطر ؟

واشارت إلى معطف واق من المطر من البلاستيك أحمر اللون ، في كيس من البلاستيك أحمر اللون أيضا . ولم يكن قد ألقى إليه باله حين جلس ، فقال لها : « لا . إنه ليس بمعطفى » .

— إذن فهو معطفى أنا .

وابتسمت ابتسامة مشرقة ، فشعر بحدة ارتباكها وقد خفت ، فقد ذكرته هذه الابتسامة بابتسامة ابنة عمته نادية . واستطردت الفتاة : « لقد تركته هنا وذهبت أتمشى قليلا عند البحيرة ، وفجأة تذكرت أنى نسيتته ، فعدت . ولكنى عندما

رائيك جانسا خشيت الا يكون هذا هو المقعد ، وان يكون المعطف لك . فما اشد انتشار هذا النوع من معاطف المحل الآن .

— إن لدى معطفا منها بالفعل . ولكنه ليس قرمزيا ، بل لونه أزرق داكن . ولكني لم آت به معي .

وجلست الفتاة على المقعد ، وبعد لحظة صمت قالت له :

... لست أحسبك انجليزيا .

— امي انجليزية .

— ولكني أحسب أبك اسبانيا .

— لا .

وأخرجت من حقيبة يدها البيضاء علبة سجاائر وقداحة ، وبعد ان اشعلت سيجارتها قدمت إليه العلبة ، فقال لها :

« شكرا لك . انا لا ادخن » .

ومدت يدها إلى الكتاب ، فلما قرأت عنوانه العلمي بدا على محياها الاستهوال ، وأخذت تحدثه عن عمله ، فلما عرفت انه طالب بالمدارس الثانوية ويهم بدراسة العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، زاد عجبها . وعرفته باسمها : « اسمي روزا روزادو » .

— اسم جميل .

— إن جدودي اسبان ، وهذا هو السر في اسم روزادو .

— وأنا اسمي منصور . أنطون منصور .

— يا له من اسم ! أهو غرنسي ؟



فرغ بصره ، واذا بفتاة سوداء الشعر ترتدي ثوبا عليه رسوم أزهار لاقطة اللون ..

— بل عربى !

— عربى ؟! من أى البلاد أنت إذن ؟

— من فلسطين .

فاطمت سيجارتها ثم قالت : « ولكنك قلت إن امك انجليزية . فانت إذن نصف عربى فقط !

— وهل هذا يعتبر فى نظرك علامة سيئة او حسنة ؟

— لست أبالى بجنسيات الناس ما داموا ظرفاء . ولكنك

قد قضيت هنا فيها يبدو زمنا طويلا .

— أربع سنوات . فقدت فقدت اسرتى كل شيء تقريبا

عندما دخل اليهود ( اللاد ) فى يوليو سنة ١٩٤٨ . وبذلك

خسرنا بيتنا وبساتين برتقالنا ورأس مالنا وكل شيء . وقد

قتلت هذه الكارثة أبى . كنا قد مضينا نعيشنا فى ( اربحا )

سنة . فلما فيها بيت وضيعة — ولكن قلب أبى كانت قد

حملته الصدمة ، فلم يلبث أن مات . . . وجئت أنا مع أبى

إلى انجلترا .

— يؤسفنى جدا أن يحدث لكم هذا .

— شكرا لك . ولكن دعينا من هذه الأحاديث الم حزنة .

ولنتحدث قليلا عنك . ماذا تفعلين هنا فى المتزهد وحده ؟

— وحده ؟ ولماذا لا تخرج الفتاة النزهة وحدها ؟

— لست ادرى . ولعل السبب ان الفتيات فى بلادى

لا يتجولن فى الخلوات وحدهن . ومع هذا لا اعتقد ان

فتيات إنجليزيات كثيرات يذهبن إلى المتزهات بمفردهن .

— وما ادراى . بعضهم يفعلن ذلك . وبعضهن الآخر لا يفعلنه . وكل شيء يتوقف على مزاج الفتاة وشخصيتها ، وحالتها العصبية . وأنا شخصا أتى دائما إلى هنا فى الأيام التى يفلق فيها المتجر أبوابه مبكرا لاستنشاق شيئا من الهواء الطلق ، لأنى أقضى أيام الأسبوع داخل المتجر محرومة من نسمة منعشة . غوالدى يدير متجرا للملابس السيدات ، مع افراد اسرتنا : أبى يشرف على الجانب المالى والتجارى ، وأخى على عمليات الشراء ، وأمى على التعديلات التى تطلبها العبيلات . وهى لا تبارح الجزء الخلفى من المتجر . أما أنا فاقوم بالبيع فى المتجر بمفردى . . لقد غادرت المدرسة عندما بلغت الخامسة عشرة ، ولست أدري كيف تطبق أنت البقاء فى المدرسة حتى هذه السن ؟!

— اننى احب الدراسة .

— أما أنا فأحب الحياة !

وضحكت ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحصر ثوبها الضيق القصير عن ركبتيها انصارا شديدا ، واستطردت :

— وليس المرء فى حاجة إلى المدارس كي يمارس الحياة .

فهى فى حد ذاتها مدرسة كبرى .

— لست ادري ماذا تعنين بالحياة ؟ نحن جميعا نحيا إلى

أن نموت !

— لا تصدق هذا الكلام ! إن بعض الناس لا يحبون بل

يتخطون هنا وهناك وهم انصاف موتى

— ما هي الحياة إذن في رأيك ؟

— يا لك من شاب مضحك ! إن الحياة الحقيقية هي التمتع بالباهج .. وأن تشبع رغبات شيا بك . وهذا شيء تعرفه أنت جيدا بالطبع !

— المشكلة الكبرى أن هذا الشيء بالذات هو الذي لا اعرفه !

وبدا عليه الارتباك لحظة ، ثم ابتسم فجأة ، وقال باندهاش :

— عليك أنت أن تعلمني !

فابتسمت ونظرت إليه نخلرة غزل وتدلل ، وقد اطمأنت إلى أن الحديث قد انحرف إلى المستوى الذي كانت تنشده . فراحت تتقاذف معه أطراف الكلام ، كما يتقاذف اللاعبين كرة ( البنج بونج ) .. فكان يلتقط الكرة أحيانا ، وأحيانا أخرى يفلتها ، غير أن هذا الأخذ والرد استغرق وقتا طويلا جدا .. ثم نظر انطون إلى ساعته وعجب لتأخره وعدم إحساسه بمرور الوقت ، وقال لها معتذرا عن عدم استطاعته البقاء :

— نحن نتعشى في السابعة .

— وأين تقيم ؟

فأخبرها بعنوانه ، واقترحت عليه أن يسيرا عبر المقتره في ذلك الاتجاه ، إلى أن يصلا إلى محطة السيارات العامة . ونهضا ، فحمل لها مظلوف معطفها ، وسارا فوق الحشائش

النامية ، والفتاة تهادى بجواره فوق كعبيها العاليين ، واردافها المتئدة تروج تحت ثوبها الضيق .

وكان كثيرا ما رأى مثيلاتها في الأفلام ، ولكن لم يخطر بباله أنه سيسير بجوار إحداهن في يوم من الأيام ! وكان إحساسه بها غريبا ، لأنه لم يسر بجوار فتاة من أي نوع من قبل ، حتى ولا بنات عمته ! .. وعجب ماذا عسى أن يقول « لندي » لو رآه . ثم تساءل عن سننها ، وخطر له أنها تقاربه في العمر .. وأحب أن يعرف على وجه التحديد ، فسألها :

— متى عيد ميلادك ؟

— في يونية . شهر الورد . ولهذا سموني روزا . وأنت ،

متى عيد ميلادك ؟

— في أكتوبر .

وأراد أن يستدرجها ، فاستطرد : « في أكتوبر القادم سأم الثامنة عشرة » .

— إذن أنا أكبر منك بأربعة أشهر !

— عجا . لقد ظننتك أصغر مني !

— والمضحك أنني ظننتك أكبر من منك الحقيقية .

حسبك في العشرين . ولذا عجبت لأنك لم تزل تلميذا في المدرسة .

ووصلا إلى محطة السيارات العامة ، على الطريق الرئيسي المجاور للمتنزه . وفي فترة الانتظار خطر له أن يسألها

( م - - الطريق الى بئر سبع ج ٢ )

متى يقابلها ، ولكنه خجل وسكت . فلما أقبلت السيارة العامة عليهما ، ولم يقل شيئا « قالت له : « ما رأيك في ان نلتقي مرة أخرى ، مساء الجمعة ، في منتصف التاسعة . في نفس المكان » .

— وإذا كان الجو ممطرا ؟

— في هذه الحالة يا فتى العزيز ندخل أى دار للسینما ! وغمرت له بعينها غمرة تواطئ ، فاحمر وجهه ودق قلبه دقا عنيها ، وقال : « ما أحب هذا إلى نفسي ! .. لقد كنت افكر فيه ولكنى لم أجسر على التصريح ! » .

وقفزت الفتاة إلى سلم السيارة العامة بكمبها العالى وثوبها المحبوك ، ثم جمعت شفتيها كأنها ثقيله في الهواء !

وفي طريق عودة أنطون عبر المتنزه ، وجسد نفسه يعيش في حلم ، وقد تبخرت من عقله كل موضوعات الاقتصاد السياسى التى كان مشغولا بها من قبل ! .. وحلت محلها كلمات الفتاة عن الحياة ، والاستمتاع بالهوى ، وقضاء ليلانات الشباب .. وأن معظم الناس يتخبطون في الدنيا انصاف موتى ! .. وخيل إليه ان تلك كانت حاله إلى ان التقى بروزا التى ستعلمه كيف يحيا !

ولما وصل إلى البيت ، وجد جده في الحديقة الامامية الصغيرة منصرفا إلى العناية بأشجار الورد القليلة . فقال له الجد معاتبا : « لقد تجاوزت الساعة السابعة » .

— انى آسف جدا يا جدى ، ولكنى لم أنظن لمرور الوقت .

— وما هذا الذى بيدك ؟

وعندئذ فقط فطن أنطون إلى أنه لم يزل يحمل بيده معطف الفتاة « فقال بارتباك : « لقد وجدته فوق مقعد بالمتنزه » .

— ولكن ما هو ؟

— انه معطف مصنوع من البلاستيك . معطف واق من المطر ، من الطراز الذى شاع كثيرا في المدة الأخيرة .

فقال جده باشمزاز : « معطف قرمزى ؟! كان من المستحسن على كل حال أن تهضى به إلى مركز الشرطة . فلا تنس أن تفعل ذلك غدا » .

— بل سأذهب به إلى هناك بعد العشاء مباشرة .

وبعد العشاء مباشرة مضى أنطون بالمعطف القرمزى إلى « لندي » « فقد كان متلهفا أشد التلهف على مكاشفته بالمخامرة العجيبة التى واثاه الحظ بها ، وابتدره بقوله : « احتفظلى الى عنذك بهذا الشيء إلى يوم الجمعة » .

— ما هذا ؟

— كنت اتنزه هذا المساء مع فتاة ، ووجدته في يدي على سبيل الخطأ بعد انصرافها ، ولا أستطيع ان أخذه معى إلى البيت . فجدى وجدتى كما تعلم .. ويوم الجمعة سألقاها مرة أخرى فأرده إليهما .

وحملق لندلى في وجهه ، ثم قال : « هل ثلث حقاً ما خيل  
إلى أنك قلته » ؟

فابتسم انطون ابتسامة عريضة وقال : « لكل شيء اوان  
كما تعلم » .

— واين عثرت عليها ؟

— أنا لم اعثر عليها . هي التي عثرت على وأنا جالس على  
مقعد في المتنزه العام ادلّاح كتابا في الاقتصاد السياسي !

ثم اندفع خارجا ، وترك لندلى فاغر الفم ، والمعلف  
القرمزي — دليل المغامرة الخرافية — لم يزل في يده !



## — V —

وبعد نصف ساعة من ركوبها السيارة العمامة ، كانت  
الفتاة التي دعت نفسها باسم « روزا روزادو » جالسة في  
حانة تروى تفاصيل مغامراتها بحماسة على مسامع صديقتها  
العزيرة « أليس ماير » . وكان للأنسة ماير هذه صدر بارز  
على غرار صدور نجوم السينما ، وعينان سوداوان يثقلها  
الكحل ، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها ، أي أنها اكبر  
من صديقتها « روزا روزنبرج » — فهذا هو اسمها الحقيقي —  
بسنة واحدة . وتعمل « أليس » في قسم الأشرطة والاسطوانات  
بمتجر لبيع ادوات الموسيقى ، وتخال نفسها مثقفة . وتأمل  
أن تتزوج من « لين » شقيق روزا الذي يشاركها في الميول  
الثقافية والميول الصهيونية ، وقد تعرفت إليه عندما حضر  
لشراء بعض الأشرطة والاسطوانات . وكان العامل الأكبر في  
جاذبيته بالنسبة لها انه يحلم بالهجرة إلى ( تل أبيب ) قلب  
الصهيونية النابض ، فلم يكن في ذهنها شيء اعز لديها من  
الرحيل إلى « الوطن » ، إلى « إسرائيل » ، مع الرجل الذي  
تحبه !

ومن أسف أن والدي « لين » كانا لا يشاركان ابنهما احلامه  
الصهيونية ، فقد ولدا ونشأ في لندن ، ويعتبران كل بلد غير  
انجلترا ارضا اجنبية في نظرهما ، والقومية في اعتقادهما  
شيء ، والدين شيء آخر ، وقصارى نظرهما إلى نفسيهما انهما  
لندنيان يدينان بالعقيدة الموسوية .



وأما ابنتهما روزا فلم تكن تعير هذه المسألة اهتماما « فلا الدين يعنيها ولا الوطن - ولندن في نظرها مكان لطيف لأنها الفتنة - ولذا كانت «الس» و «لين» يعتبرانها « خفيفة العقل » او « فسطحة » ، ويأملان ان تحب يوما ما شابا صهيونيا متحمسا فتتحمس هي أيضا بالتالى للصهيونية . ولكنها اللبيلة وهى جالسة امام الس تحتسى جرعات كبيرة من شراب « الجين » القوى وتروى لها قصة اصليادها لظليد غريب في المتنزه السام « سببت آلاما شديدة لصديقتها ، لأنها زادت اتباعا عن الابل المنشود لها ..

.. لقد قلت له انى بلغت الثامنة عشرة فى بونية الساخى ، فقال لى إنه كان يحسبني أصغر من ذلك سنا ! وقلت له إن اسمى « روزا روزادو » وأن أجدادى من أصل إسباني !

.. هل جننت ؟

.. لو اننى قلت له إن اسمى « روزا روزنبرج » لكان من الجائز أن ينفر منى ، ولم أكن مستعدة للمجازفة بذلك . ولكلك لا تستطيعين تقدير هذا الاحساس لأنك لم ترى جماله . ولأنك أيضا لا تعرفين جنسيته !

فقالت الأنسة ماير بمرارة : « لعله عربى »

فنظرت إليها روزا بدهشة وقالت : « ربا ! كيف تستنى

لك أن تعرفى أنه عربى » ؟

.. عندما قلت لى إنك ادعيت لنفسك تلك الدماء الإسبانية ، أدركت أنه فى الغالب من أصل له صلة ببلاد الأندلس . ولكن أهو عربى حقا ؟

.. تقريبا .. أنه فى الواقع فلسطينى . وقد روى لى كيف اضطروا - هو وأسرته - للخروج من بلدهم فى سنة ١٩٤٨ ، وكيف خسرت أسرته كل شيء بسبب ذلك ، وأن هذه النكبة قضت على حياة أبيه بعد ذلك بوقت قصير . والحقيقة انى أسفت كثيرا له ..

.. أسفت له ؟ انهم الذين بادؤونا بالحرب والسردان ! انصحك يا روزا الا تذكرى شيئا من هذا لأخيك !

.. لست أبالى . فهو جذاب جدا . وسوف أقابله مرة ثانية يوم الجمعة .

.. آه ! انتظري إلى أن يكشف أنك يهودية !

.. سوف لا أخبره !

.. ولكنه لابد أن يكشف الحقيقة فى النهاية .

.. وهبى أنه عرف ، فماذا فى ذلك ؟ ليس من موجب اطلاقا فى نظرى للعداء بين اليهود والعرب !

.. لا تكونى بلهاء إلى هذه الدرجة يا روزا ! لا تقابليه بعد اليوم . فإنه - عاجلا أو آجلا - سيكشف أنك يهودية ، وعندئذ سينقلب حبك لك إلى كراهية ومقت . ثم ما جدوى هذه المغامرة على كل حال ؟

.. ماذا تعنين ؟

.. أنه حديث السن جدا . وحتى لو لم يكن حديث السن جدا فلن يمكنكما الزواج على كل حال !

— ومن الذى يفكر فى الزواج ؟ انى اريده صاحباً وحبيباً !  
الهو واتمتع بشبابى معه بعض الوقت . وهذا كل شيء ! ثم  
إنه صارحنى باعتزامه الذهاب إلى الأردن فى نهاية السنة .  
آه لو رأيته ! إنه لطيف بصورة لا يتخيلها العقل . . وساذج  
جدا . وبرى . واعتقد أنه لم يسبق له تقبيل فتاة فى حياته  
كلها ! تصورى أنه تسال لى أن على أن أعلمه كل شيء عن  
الحب ، وعن الحياة المرحلة اللذيذة ؟!

وفسحتك روزا فى سعادة ، وأردفت : « وارهناك على انه  
سيتعلم بسرعة فائقة . فهو يبدو ذا استعداد هائل فى هذه  
الناحية . . فشكله يدل على ذلك » .  
— يدل على ماذا ؟ على النكاح ؟

— آوه . . بل على الموهبة الجنسية !

فناالت لها الس محذرة : « ستزجين بنفسك فى المتاعب  
يوما ما من غير أن تشعري » .

— ولماذا ؟ لقد حظيت بالاتصال بفتيان كثيرين جدا من  
قبل كما تعلمين . وبعضهم كانوا من ذوى الخبرة الواسعة  
جدا فى هذا الميدان ، ولكنى كنت أعرف دائما متى أوقفهم عند  
الحد الذى اريده أنا !

— آه ! إن الفتيان المحبرين — كما تسمينهم — جانبهم آمن  
من جانب هؤلاء السذج المبتدئين . لأن المحبر لا يندفع بجهل  
وحماسة فائقة كالساذج . والمسألة كلها فى جملة ذات طابع  
جنونى فى نظرى . فما أكثر الفتيان اليهود من حولك الذين

نستطيعين الاستمتاع معهم ، وهم أولى بالاستمتاع بك من هذا  
العربى . ماذا مثلا عن ذلك الفتى الذى التقيت به فى المرقص  
يوم السبت الماضى ورتقت معك طول الوقت ؟ ما اسمه ؟

— دافيد ماركس ! أنا لا اريده . فهو مفرور أكثر مما ينبغي ؟  
ويتخيل إليه أن كل فتاة واقعة فى غرامه . وهذا هو السبب  
فى اننى رفضت أن أعطيه موعدا لأخرج معه . ولكن هذا الفتى  
يختلف عنه فى كل شيء ، فهو خجول . . ولكنى سوف أعلمه  
الجرأة فى الغرام !

— هذا ما يخيل إليك ! ولعله هو الذى سيعطيك درسا  
لا تنسينه !

ولمعت عينا روزا . واكتسى وجهها بابتسامة مشرقة وقالت :  
« آه ! كم سيكون لذيذا أن أعلم منه إذن ! » . . وبعد لحظة  
تهدت وأردفت : « انه جميل ! ظريف ! فنان ! ولكنك  
لا تدركين هذا لأنك لم تريه . عدينى أنك لن تخبرى « لهن » .  
عدينى ! » .

— لا نترعجى . سوف لا أخبره . ولكن هذا لا يغير من  
الواقع ، وهو أن المسألة كلها ليست على ما يرام . وستندمين  
عليها يوما ما .

— أندم ؟ ولماذا أندم ؟ أنا أنوى أن أحظى بمتعته معه .  
ولن بحول بيتى وبين هذه المتعة أحد !

وفي الموعد المحدد ، يوم الجمعة ، وصلت الفتاة إلى المكان المعهود ، فإذا أنطون جالس « وإلى جواره دراجة ! وعندما أبدت دهشتها بصددتها ، صارحيا بأنه وجد عقبات في سبيل الخروج من البيت ليلقاها ، إذ قال بمد العشاء أنه يريد التوجه إلى بيت مدرسه الخاص السابق برهة هذا المساء ليستوضحه بعض نقاط النظرية الاقتصادية ، وإذا يجده يقول على الفور إنه يريد ان ينتهز هذه الفرصة للتنزه معه على قدميه بعض الوقت في ذلك الاتجاه ، فلم يجد بدا من ان يزعم انه سيذهب على دراجة ليمر أولا ببيت زميله لندلى الذي قضى معه فترة العطلة السابقة في سويسرا .. وانضاف انطون :

— وكان هذا صحيحا يا روزا ، لأنى كنت قد أخفيت عنده معطفك الواقى من المطر ، ولابد لى من إحضاره. وكل ما هناك انى لم اكن عازما على الذهاب بالدراجة ، بل بالسيارة العلية .

وتناولت روزا معطفها من يده قائلة : « ولكنى لا أتهم لماذا أخفيت المعطف عند زميلك » .

— لأنى لو أخذته إلى البيت عندنا لكان على أن اجيب عن مدة أسئلة : فاذكر لجدى وجدتى كيف تعرفت بك ، وكيف اننا ستقابل مرة أخرى ، وهى أسئلة لا احبها .

فاستاءت روزا بعض الشيء ، وقالت بامتناع : « اليس فى وسعك أن تغادر البيت إذن من غير أن تقول لهما إلى أين أنت ذاهب بالضبط ؟ » .



ولمت عينا روزا ، وانسى وجهها بابتسامة مشرقة وقالت :  
« آه ! كم سيكون لذيذا ان نتمسك منه الآن ! » .

— ليس هذا سهلا ، لانهما يجبان بطبيعة الحال أن يعرفنا كل شيء .

— أنا شخصا لا أقدم أى تفسيرات عن تحركاتى . حسبى أن أقول انى خارجة !

— لعلى لو كنت أعيش مع أمى لم أكن مضطرا لهذا . ولكن جدى وجدتى من الطراز القديم كما تعلمين .

— يبدو هذا .. أرى أن السماء ستمطر .. وفتحت المظروف واستخرجت معطفها الواقى من المطر . وساعدها هو على ارتدائه .. ثم قالت بتذمر : « فولا انك احضرت معك هذه الدراجة لكان فى وسعنا أن ندخل دارا للسيئنا » .

— ليس فى وسعى على كل حال أن أأخر فى الخارج إلى موعد انصراف السيئنا .

— لم يكن هناك إذن ما يبرر الحضور . اليس كذلك ؟

— اليس يكفى أن نتمشى قليلا ؟

فنظرت إليه نظرة محنقة ، ولكنها تقدمته سويا أجمعة الشجر الكثيفة فى ركن المنزه . وكان الهواء ثقيلًا . ومحملا ببوارد مطر ، ووجدت روزا صسوبة فى السير على العشب الكثيف بكعبها العالى وحذاءها المكشوف ، لأنها كانت قد رقت نفسها على قضاء الليلة فى ركن خلفى متوار من دار السيئنا ، كى تحظى منه بما تشاء من العناق واللمسات الغرامية الساخنة .

وتوغلت به بين الشجر ، ثم نظرت حولها وقالت له : « فى وسعنا أن نجلس هنا » .

— ولكى لا أرى مقاعد ..

— لا عيب فى الجلوس على الأرض .. هكذا !

وبجوار شجرة بلوط صغيرة جلست ، أو بمعنى أدق اضطجعت على الأرض فوق كومة من الأوراق الجافة ، واستند انطون دراجته إلى شجرة بعيدة ثم جلس على الأرض منتصب القامة بجوارها ، وهو يعجب كيف تقدم فتاة « محترمة » على شيء كهذا . فالكان قذر . وهناك مجموعات من النمل ..

وبسرعة خلعت روزا صندلها ذا الكعب العالى وهى تقول لهجة تائيب :

— لقد كاد المنى يقتلنى .. والآن اقترب منى قليلا !

وقبل أن يتحرك كانت هى قد التحقت به وألقت سراسها على كتفه . ولكنه حسب أن كل ما ترمى إليه هو أن تتخذ من كتفه وسادة ، فلم يحرك ساكنا .. فقالت له فى إغراء :

« ها أنت ترى المكان خاليا إلا منا نحن الاثنين » ..

— فعلا ..

ولم يحرك ساكنا أبضا . وكانت تنتظر على الأقل — مهما كانت درجة براعتها — أن يمد ذراعها فيطوق عنقها وينحنى تميلها . وانظرت لحظة ، ثم قالت له بصوت جاد : « اليسيت لديك أية فكرة عما يصنعه الفتى

غارتبك امام هذا السؤال المباثر المفصوح ، وضحك ثم قال : « هذه مسألة جديدة تماها بالنسبة لى . . وكل ما يساورنى الآن ان اتال منك قبلة . . إن كان هذا ممكنا : » ، فرفست وجهها إليه وقالت بهدوء : « ولماذا لا تنالها إذن ؟ » غلقتها بذراعه بغير قوة ، وقبل خدها . وكاد يبعد عنها وقد فرغ من « مهمته » تلك ، وإذا بها تتناول وجهه بين يديها وتلتهم شفثيه التياها بقبلة ضارية « وقد دست لسانها بين شفثيه ، فكادت أنفاسه تلهث من الدهشة والمعاجاة ، وأصابه دوار !

وأخيرا رفعت عنها عن ذلك المنهل الذى شربت منه بشرارة . وقالت : « كم أنت لذيق الطعم ! ولكنك طفل . طفل كبير ! » . — اوه . انا آسف جدا إن كنت خيبت ظنك .

وعبثت اصابعها داخل حقيبة يدها واستخرجت سيجارة اشعلتها وجذبت منها نفسا قويا ، ثم قالت له : « اهذه أول قبلة تنالها بن فتاة ؟ »

— لم اقبل فتاة قبلك إطلاقا .

— ألم تحذرك نفسك بتقبل فتاة ؟!

— كلا . . الى أن التقيت بك لم أفكر فى ذلك . لم يخطر ببالى . . فالحقيقة ان امور حياتى كلها كانت مضطربة جدا منذ غادرنا فلسطين .

— أحسب هذا هو السبب فعلا . لقد مرت بك تجارب سيئة .

— سيئة جدا . مظيعة . ولم تزل تتراعى لى الكوابيس الى اليوم حول هذه التجارب المروعة .

— ولكن هذا كله قد انتهى الآن ، وفى وسعك ان تريح أعصابك وتتمتع بحياتك ، وقد صارت لك صديقة !

غرد على ابتسامتها بابتسامة وقال : « نعم . هذا شىء رائع حقا . فانى لم استطع منذ فارقتك أن أفكر فى أى شىء سواك ! » .

— يجب إذن ان تفكر فى طريقة نجتمع فيها معا على صورة اوفق من هذه ، واتسب ، وادعى للانطلاق على سحبتنا . ما رايك فى يوم الأحد ؟!

فهز انتطون رأسه بوجوم ، وقال : « لا فائدة من المقابلات فى عطلة الأسبوع ، لأن أمى تحضر لدينا ويجب ان أكون بالقرب منها . وإذا لم تستطع الحضور مساء السبت ، ذهبت لمقابلاتها فى المدينة بعد انتهاء الصلاة فى الكنيسة صباح الأحد ، ثم نخرج للنزهة وقضاء الوقت معا » .

— اذهبي الى الكنيسة ؟ وهل انت متدين ؟

— لست أدري هل أنا متدين أم لا . ولكنى أحب اذهاب الى الكنيسة . الا تحبين انت الكنيسة ؟

— أنا ؟ أنا لست أرثوذكسية !

— طبعاً ، فانت كاثوليكية ، لأنك من اصل أسباني .

— أنا لست منتية لأى كنيسة اقتناء حقيقيا !

— لقد بدأ المطر يشتد . يجب أن تنصرف الآن من هنا .  
— نعم . وأنا أيضا يجب أن أعود على كل حال .

ونهض وأنهضها . وكانت متأكدة أنه سينتهز فرصه التصاقها به هكذا عندها وقفت كي يتلبها . مستفيدا مما تعلمه من قبلتها الساخنة ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك . وتركها حائفة واتجه بسوب دراجته كي يحضرها .

وعند موقف السيارة العامة أعطته الفتاة رقم تليفونها . وأتفرقا من غير أن يتفقا على موعد آخر ، فقد قال لها إنه يجب أن ينصرف إلى الدرس ، ثم هو لا يستطيع أن ينتقد من الآن بموعد لأنه لا يعرف متى سيكون الخلف مناسباً للقاء . وقد اقترب الامتحان ..

وانتقنا على أن يتصل بها تليفونيا عندها يستطيع تدبير مكان وزمان مناسبين للخلوة السعيدة التي تحلم بها .

— ٨ —

وكان انطون يحرك تمام الإدراك أن هذه الفتاة روزا ليست من الطراز الذي يمكن أن يلتقى به في دوائر آل منصسور أو آل مقبي . وهو يعلم تمام العلم انهما من النوع الذي تطلق عليه حديثه وصف « السوقية » . أما انه فلم يكن متأكدًا ماذا عسى أن يكون رأيها . وخطر له فجأة أنه في الواقع يسرف عن نفسه جدته أكثر مما يعرف عن تفكير أمه . فهو على علم بطريقة تأثيرها بأشياء كثيرة . أما أمه فدخل إليه أنه لا يعرف عن رأيها في معظم الأمور إلا أقل القليل !

وقال لنفسه : « ليس في وسعي أن أخبرهم ، لأنهم لن يستلعبوا غيم حقيقة الموقف .. » اندلى « وحده يستطيع أن يفهم ذلك لأنه بعيد للفتيات وصحبتهن ، من كل نوع ، ولا يقيم زنا على الإطلاق . لمقتضيات الرسمية في التقديم والتعارف وما إلى ذلك . ولكن لندلي لا يحيط أسرته علما بهما ، انه . ويعود إلى الكذب والخداع في علاقاته تلك ! » .

روزا ! ما أحلاها ، بشعرها الغزير الحالك السواد ، وعينها السوداوين الواسعتين ، والابتسامة التي تذكره كثيرا بأبنة عمه نادية . لقد كان في هذه المقابلة خجولا مرتبكا ، ولكنه في المرة القادمة .. لن يتجيب ، ولن يستقر الموقف ، وسيميل بلاء حسنا !

سينتصّل بها تليفونيا في الأسبوع القادم ويحدد معها موعدا ، ثم يذهبان معا إلى السينما كما اقترحت هي . وفي

الظلام الدافئ الذى يكتنف قاعة السينما لن يشعر بالخبيل الذى شعر به فى العراء . سيجلسان فى الصف الآخر وتتشابك أيديهما و .. و .. يتبادلان القبلات ! لقد رأى الكثيرين يصنعون مثل هذا فى السينما . وكثيرا ما تباهى صديقه لندلى بأنه صاحب فتيات إلى السينما ولم يروا شيئا من الفيلم المعروض ، لأنه كان يمثل معهن فيلمها خاصا جدا !!

\*\*\*

وعاد إلى البيت فالتفتى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة مشغولا بمهمته الليلية التى يسميها « الانتهاء من قوائم التاييس » ، فلما رآه جده داخلا طوى الصحيفة . وسأله : « هل تمكنت من استجلاء النفاط الضامضة مع مستر هونز » ؟

.. نعم . وشكرا لك . أين جدتى ؟

.. فى الداخل تصنع الشاي .

.. الجو حار جدا لا يصلح لتناول الشاي . ما أشبه هذا بجو أريحا الخائق .. لقد أرهقنى جدا . ولذا اعتقد انى سأوى إلى فراشى فوراً ، إن لم يكن لديك مانع .. لانى أشعر بصداغ . ولابد أن الرعد هو السبب فيما أعانيه .

فأجابه جده وهو يستخرج غليونه من جيبيه ويشرع فى حشوه :

.. ربما ..

\*\*\*

وعندما أوى روبرت ملهى إلى مخدعه بعد ساعة ، خاليا إلى نفسه ، استلقى على فراشه وراح يحرق فى الظلام ، مفكرا فى الشخصين اللذين رآهما يخرجان معا من الغابة الصغيرة وهو يتمشى هذا المساء .. وكان هذان الشخصان : تلك الفتاة ذات الشعر الفاحم والمعطف القرمزى الواقى من المطر . وقد تابك ذراعها .. ابن ابنته !

كانت الفتاة تضحك له . وكان انطون سعيدا منتقميا بقربها ، حتى أنه لم يلح جده قبل ان يتوارى بسرعة وراء شجرة ، ثم يتسلل إلى اقرب حانة فيطلب كاسا مزدوجة من الويسكى ، ليتقلب على المباحثة المذهلة التى منى بها . وما أن تلاشى الشعور بالمفاجأة حتى حل محله شعور بالاستياء الشديد .. لماذا فعل به انطون هذه الفعل ؟ لماذا كذب عليه منذ البداية فى شأن هذا المعطف القرمزى القبيح الذى زعم له أنه وجده على أحد مقاعد المتنزه ؟ ولماذا ادعى أنه حمله إلى مركز الشرطة ؟ لعل الصحيح أنه حمله إلى بيت زميله لندلى ، ثم استرده منه هذا المساء ؟ فقد قال إنه ذاهب إلى هناك عندما خرج اليوم . ولكن لماذا بكل تلك الأكاذيب والخدع ؟ .. إن هذه أول مرة يشعر فيها بالاستياء والتأذى من حفيده ، وهما هو الآن يحلق منفردا بنفسه فى الظلام ويحاول ان يجسد تعليلا لسلوك انطون . وبدأ ينتحل له المعاذير :

.. لم يكن فى وسع انطون أن يجبرنى بأمر هذه الفتاة ، لأنها قتيمة تصيدها من الطريق . وهو فى قرارة نفسه يعلم أنها شابة غير مناسبة له وغير لائقة لـ .. ولأنه يعلم .. فيما لو



أخبرنا - أنه سيكون مضطراً لكاشفتنا بكيفية تعرفه إليها .  
ولن يكون ذلك مستساغاً .

ثم شرع بعد ذلك ينظر إلى هذه العلاقة في ضوء عملي بحث :  
- ولكن ماذا عساه يصنع مع مثل هذه الفتاة ؟ إنه فتى  
وسيم ، وما أكثر الفتيات اللواتي يتبنين محاسنته من بنات  
الأسر ، في محيطه ومحيطنا . وإنه ليلقى الكثيرات منهن كل  
يوم ، فما حاجته إلى التخفي في الأجسام والغابات مع هذه  
المخلوقة المبتذلة ؟

وانتقلت أفكاره إلى ابنته ، والدة أنطون : « وماذا عسى  
أن تقول ماريان في هذا لو أنها علمت به ! وهل يبقى أن  
تعرف ! أنه لمن المستحيل مكاشفة ماريان وإخفاء السر عن  
الزيميت . . وإن لم يكن من المستبعد أن تشجع ماريان ابنها  
على مثل هذه العلاقة - بصرف النظر عن كنه الفتاة نفسها  
وصفتها - طبعاً في المباحدة بينه وبين فكرة قضاء سنة  
التزويج في الأردن ، ولعلها في هذا على حق » .

ومرة أخرى عاد إلى علاقته هو بهذه المسألة : « ولكن لماذا  
أخفي أنطون على أنا هذه العلاقة ، ولو كلفه ذلك الإخفاء  
الكذب ، وأنا صديقه وصفيه الحميم ! . هل أشعرته في أي  
يوم من الأيام بما يدفعه إلى الحذر مني وإخفاء خصوصياته  
عني ؟ أم لعل السبب أنني في مقام والده بعد وفاة بطرس  
منصور ، ولذا فهو يستحي من مصارحتي بمثل هذه الشئون ؟  
ثم ما العمل الآن ! هل ألزم الصمت وأترك الأمور تجري في

أعنفها ؟ أم أجابه الفتى بكل ما أعرفه ، وأقول له صراحة :  
« لماذا كذبت علي ؟ لماذا خدعتني ؟ ومن هذه الفتاة السوتية ؟  
وما هي نواياك حيالها ! » . لا . لا . إن ذلك كله سخي  
جداً ، فتحن الآن في سنة ١٩٥٢ . حمانا الله وكان في عوننا !  
إنه حكم الزمن . . وليس من الجائز إخراج الفتى بهذه  
الصورة القاسية ، فذلك قد يدفع به إلى علاقة أوثق بتلك  
الفتاة . . فيبعد أن يكون مكثفياً بأحضانها في الحديقة ، يدفع  
إلى التقارب بين أحضانها في الفراش ! ثم إن ذلك من شأنه أن  
يسدل ستاراً حديدياً بيني وبينه إلى الأبد . فمن الخير إذن  
أن ندع المسألة تأخذ مداها بدون تدخل . . ولتقرب ولتنتظر  
ما يتمخض عنه الفد . . من غير قلق ، على حد تعبير ابننا ، هذا  
الجيل . . : « دع القلق . . . واستأنف الحياة ! » .

- ٩ -

كانت « اليس ماير » مخلصية في وعدها الذي قطعته على نفسها بالابتهاج بسرّها لروزا . ولكن من الأمرار نوعا معينا تدخل في تكوينه « أحماض كاوية » ، تحفر لنفسها مسارب تتسرب عن طريقها من الخزائن التي تودع فيها داخل البريرة .

والحق أن « اليس » كانت في حالة « انسجام » تام مساء ذلك اليوم من أيام السبت ، وهي جالسة مع « لين » ( شقيق روزا ) فوق شرفة الفندق الواقع على شاطئ النهر في ( ريتشموند ) . تحلبى كاسها الثانية من « الجين » . . تلك الكاس الثانية التي تقول اليس دائما انها تجعلها في حالة « انسجام » تام !

ومن عادة « لين » أن يأخذها في سيارته الصغيرة في نهاية كل اسبوع - في حالة اعتدال الطقس - ويقرك السيارة في رحبة الفندق ، ويجلسان في الشرفة مطلقين على النهر ، ويشربان بضعة أقداح مترعة من الشراب القوى ، ثم ينتقلان إلى قاعة المطعم بالفندق فيتناولان عشاء طيبا . وكان من أهم ما يجيب « لين » إلى « اليس » انه ينفق في صحبتها بسخاء . وبعد العشاء يستقلان السيارة إلى تبيل ( ريتشموند ) الذي تكسوه الخمايل ، وبه حديقة واسعة . وهناك يتركان السيارة ويأخذ « لين » من حقيبة السيارة معطف مطر بريطانية . فيغرفس البريطانية على الأرض في مكان منزو بين الأشجار الملتفة ، وأما المعطف الواقع من المطر فانهما يلتحقانه معا في



فيغرفس البريطانية على الأرض في مكان منزو بين الأشجار الملتفة

حالة هطول الأمطار ، وينصرفان وهما في حالة « الانسجام »  
— من الخور والطعام الجيد الذي يدقء أوصالهما — إلى  
الوان من « العناق » و « اللمسات » الحامية الموطيس . وهذا  
العناق « الساخن » هو العنصر الرئيسي في برنامج الليلة  
باستمرار .

وكانت « الس » تزهو دائما بأنها تعرف في جميع الأحوال  
أين تقف ، وأين توقف «الطرف الآخر» عند حده . وإن كانت  
تعترف أن المسألة كلها محفوفة بالمجازفة ، وأن المجازفة تبني  
في أحيان كثيرة مغرعة ، ولكنها تتعهد وتحمّد الله على  
« السلامة » في آخر لحظة ! ولكنها تعلم أن الحزم — مهما  
كان قاسيا على نفسها — فهو لازم وواجب ، لأنها بفضل هذه  
الخطة تطمع في إرفاق « لين » على الزواج بها يوما ما ، كي  
يتخلص من هذه « الشرقيات » المؤلمة . فإن ماجلا أو أحلا  
سيصرخ لين :

— لم يعد في وسعنا الاستمرار على هذا النحو !

وهي واثقة أنه في حماسة الحرمان سيعلمن خطبتهما  
رسما !.. وهي تتوقع أن يحدث هذا الإعلان في أى مساء  
من امسيات السبت .

وكانت تأمل كثيرا أن يتم هذا في هذه المرة بالذات ، لأن  
« لين » كان « مشتغلا » للغاية منذ غادرا الفندق ، ولم تكف  
يده عن تحسس أعطافها اللدنة في الموضع الحساسة وهو  
يقود السيارة ، قبل أن يصلا إلى فندق ريتشموند كالعادة »

مما حرك مشاعرها . وحين تتحرك مشاعر امرأة نحو رجل  
ما فلن تقوى طويلا على الكتمان .

وفي منتصف كأس « الجين » الثانية قالت له بغموض :  
« ان تستطيع أن تخمن من هو آخر خلان اختك روزا ! .. »

ولم يثر فضول « لين » ، لأن اخته روزا تصاحب عددا  
لا حصر له من الخلان ، الواحد بعد الآخر ، وقال بلا مبالاة :

— ليست لدى أية فكرة طبعاً . ولماذا اهتم بأصحاب  
أختي ؟.. إنها لم تكن جادة في صلتها بأى واحد منهم ..  
وإنما هي ضمت ولمسات عابرة في ركن مظلم من المسبها أو  
في المقعد الخلفى من سيارة أحدهم ..

وضحك لين وهو يقرص موضعا في جسم « الس » ، وقال :  
« انا أعرف أختي الصغيرة .. وجبها لهذه « المسألة » ! .. »

— سواء كانت جادة أو غير جادة ، فسيدهشك ، بل  
سيذهلك ، أن تعرف هذا الصاحب الأخير !..

فبدأ عليه الاهتمام وقال في توجس : « لا تقولى لى إنه  
متزوج ! ! فقبحته الس وقالت : « متزوج ؟! بالعكس ! إنه  
لم يزل تلميذا في المدرسة .. عمره ١٨ سنة ! بل أقبل  
من ذلك ! ! »

— هل انقلبت أخيرا إلى « خاطفة اطفال » ؟ ولكن لا شأن  
لنا بهذا ، ما دام هذا اللون من المتعة يروقها ! هيا اشربى  
بقية كأسك كى ننهض إلى قاعة المائدة ..

فأمسكت « ألس » بكأسها ولكنها لم تشرها « بل قلبتها في يدها وقالت بلهجة ذات مغزى : « أنت لم تفهم غرضي » بعد ! » .

— بل فهمت ! روزا تصاحب تلميذا صغيرا . وماذا في ذلك « هي حرة فيمن تختارهم لمعتها الخاصة !

— ولكنه لاجيء . . من فلسطين !

— أية ؟ ماذا تقولين ؟ هل هي التي قالت لك هذا ؟

— وكيف كنت خليقة أن أعلم ؟

— لابد انها جنت !

— هذا بالضبط ما قلته لها انا !

— وماذا قالت لك ؟

— قالت ما معناه ان اليهود والعرب يتبغى الا يتباغضوا : وكانت تشعر بمنتهى العطف عليه وعلى قومه !

— تعطف عليه ؟ على عربي ؟

— لأن أسرته فقدت كل ممتلكاتها عندها اضطرت للهجرة من اللد .

وشربت ألس كأسها وقالت له باسمه : « أفلا تنهض ؟ » . ولكنه في هذه المرة كان هو الذي تباطأ « وبدا وجهه شاحبا جدا من فرط الغضب ، وقال لها بمنف : « أمانا ما هو أهم ! لابد انه يصب في اذنيها دعايته المسمومة ضد الصهيونية وضد إسرائيل ! » .

— ولكن ملنا ولهذا « اننا لا نستطيع شيئا ، نهيا بنا ناكل .

ونفضت ، فلم يجد بدا من النهوض بحركة عنيفة ، فاستقل كوبا على الأرض لشدة نخبته وهو يقول : « الا نستطيع شيئا حقا ؟ مسترين ما سافعله ! » .

وشعرت « ألس » بالخوف الشديد ، لأن روزا لن تستغفر لها هذه الخيانة . ولكنها هزت كتفيها وقالت لنفسها : « ما كان لها أن تبوح لي بهذا السر على كل حال ، وهي تعرف اني صهيونية متحصة مخلصه لمبادئ وعقيدتي ! أوه ، كنت اتهمي لو عقلت لساني ولم افش سرها ، ولكن الكاسين جعلنا الكتمان مستحيلا . . ثم لمسات « لين » . . وكل شيء !

\*\*\*

وصمم « لين » على أن يصفى الموضوع مع روزا هذه الليلة بالذات . ولم يخض في أي موضوع آخر على سائدة المساء . ولم يحاول مرة واحدة أن يمد يده خلسة تحت مفرش المسائدة ليتحسس ركبتي « ألس » كعادته . .


وبعد لحيات قليلة كف عن الطسام ، وقال : « اشعر بانزعاج شديد . لن أصلح للذهاب معك الليلة إلى الحديقة ، أعصابي في غاية التضدع . ويجب على أية حال أن أذهب إلى البيت مبكرا هذه الليلة » .

— ولماذا ؟

— كي أكون في انتظار هذه العاهرة الصغيرة عند عودتها !

— ولكني لا أعتقد انها تقابله في أيام السب .

— أنت لا تعرفينها إذن ! انها لا يمكن أن تدع يوم السبت يمر من غير أن تتمرغ في أحضان فتى يروقه ! ولم أرهـا

تخلف عادتها هذه سبتا واحدا منذ  الفرسة !

ومدت « الس » يدها من تحت مغرش المائدة ، وضعتها على فخذه ، محاولة استدراجه ، وقد مالته إلى الأمام بشدة فوق المائدة ، فبدت له من فتحة صدرها العارية مفاستها التي كان يتحرق مادة إلى اجتلائها ، ولكن سحنقه المبردة لم يبد عليها التأثير بما يلمس ولا بما يرى ، فقالت : « هبها تسمع منه دعاية ضد الصهيونية » ففى مقدورك أن تصحح لها تفكيرها بسهولة بعد ذلك ، من غير أن تفسد علينا لذتنا الأسبوعية بهذه الصورة .

— يا لك من حمقاء ! أليست امرأة ؟ هل تعتقدين أن الفتاة المفتونة بشباب يمكن أن تعير سمعها لما يقوله أخوها ، إذا كان مناقضا لما يقوله خليلها في لحظات الانسجام ؟

— أرجوك . لا تكن مغرطا في قسوتك على روزا ! إنها مسألة هيئة جدا . . هيئة للغاية ! إنه تلميذ صغير !

— لا نائدة من هذا الكلام كله ! هذه مسألة خطيرة جدا . ويجب وضع حد لها . وسأضع حدا لها .

— لست أرى كيف يمكن هذا ! ماذا ستفعل ؟

— سأروعها ! سأفزعها بحيث لا تجسر بعد ذلك على الاتصال به .

— إنها ستكرهك إلى الأبد ! لن تفقر هذا لك !

— لا حيلة لى فى هذا . ومن ذا الذى يسألنى بالحرب أو الكره ؟ إن فى الدنيا أمورا أهم من هذين بكثير . .

— ١٠ —

والواقع أن روزا روعت ارتياحا شديدا ، حتى أنها بعد خطوة التحدى الفريزية التى اتخذتها لأول وهلة إزاء أخيها ، دفاعا عن حقها فى الحرية الشخصية فيها يتصل بعلاقتها بالجنس الآخر ، على حسب تقاليد بيتها ، ثابت إلى خطة أخرى مناقضة لها تماما ، فتعهدت بالألا ترى « انطون » بعد ذلك أبدا ، فيما عدا مقابلة أخيرة تودعه فيها . بيد أن أخاها ظلل ثابتا على موقفه الحازم ، مصمما على الاتراء حتى ولا تلك المرة ، وقال لها :

— خبرينى أين مستقابينه يوم الاثنين وسأذهب أنا إليه وأشرح له الموقف . وسأعرف كيف أشرحه له جيدا !

وكانت قد اتفقت مع « انطون » على اللقاء على ذلك المقعد المواجه للبحيرة — فى المنزه العام — فى منتصف التاسعة . وكانا قد التقيا يوم الأربعاء السابق عند محطة السيارات العامة ، وتوجها على الفور إلى دار قريبة للسكنى . وكانت « الحفلة » ناجحة جدا ، فلم يريا شيئا من الفيلم لفرط انهماكما فى « عرض خاص » بهما ، وبلغ من هذا النجاس انهما اتفقا على المقابلة عند البحيرة يوم الجمعة ، وذهبا فى هذه المرة إلى الغابة .

ولكن الخطوة فى الغابة هذه المرة كانت مختلفة تماما عن أول خطوة لهما هناك . لقد زایل انطون حياؤه تماما ، حتى لقد تسرع الاثنان انه سيصعب عليهما الصبر على الشوارع المزدحمة .

الاسبوع - حتى يوم الاثنين الذى تواعدا على اللقاء فيه أمام البحيرة ، ليكررا زيارة الغابة - وقد بات انطون لا يرهف الغرام في العراء . والحق ان افتتان كل منهما بالآخر ، او بالمتعة التى يجدها بين احضانه بمعنى ادق ، كان بالغ الفاجع ، ولكن لم يكن من ذلك الصبر مفر حتى يوم الاثنين .

وما هو أخوها « لين » ينتزع منها هذا الوعد العظيم بالا تراه ولو تلك المرة الأخيرة ، ولكنها صهمت بينها وبين نفسها على ان تذهب للقاء تلك المرة ، ولو كان في ذلك هلاكها ، ولذا كتبت عن أخيها مكان اللقاء !

وخرجت يوم الاثنين من البيت في ساعة مبكرة جدا - قبل خروج أخيها ، حتى لا يتبعها - وظلت في المتفرج زهاء ساعة تنتظر حضور انطون ، وهى متوجسة ان تكون الخائنة الواشية « السى » قد باحت أيضا بمكان التلاقى ، فتفاجأ بأخيها « لين » وقد جاء مقسلا إلى هناك « ولذا حرصت على التوارى خلف مجموعة من الأشجار ، وهى في حالة يرئى لها من التوتر العصبى ، إلى أن حضر « انطون » قبل الموعد المضروب ببضع دقائق .

ولكم أدهشه أن يراها تبرز له فجأة من وراء الأشجار ! ولكن الدهشة لم تلبث أن أخلت مكانها للفرح عندها رأى الإمارات البادية على محياها وهى تقترب منه ، وسألتها : « يا الخير ؟ هل هناك ما يروعك ؟ » .

— نعم . كل شيء . كل شيء على غير ما يرام . هيا بنا . نضى إلى الغابة . . . وهناك سأشرح لك كل شيء .

وتبعها إلى الغابة وهو يغالب القلق « متصنعا المرح » وسألها : « ما المسألة ؟ ولماذا تسرعين هكذا » .

— كى نخفى .

— نخفى ؟ ممن ؟ ومم ؟

— من أخى . . .

وزادت من سرعتها ، فلم يسعه إلا أن يلاحقها . وفي جوف الخميلة الملتفة هذا من روعها قليلا بعد ان تلفت حولها وأطمأنت إلى أن أحدا لا يتعقبها . وسألها مرة أخرى : « ولماذا يجب أن نخفى من أخيك » . . . ولكنه لم يترك لها فرصة للجواب ، بل جذبها إليه على الأرض المعشوشبة ، وأغلق معها بقبلة منهومة أصابت رأس « روزا » بدوار « وظلت بعدها مدة ثوان مبهورة الانفاس » لا طاقة لها على الكلام ، فقال لها :

— لقد قضيت هذه الأيام على أحر من الجمر من شدة الشوق إلى الاجتماع بك مرة أخرى ، أيتها الغائسة الحلوة روزا !

وتشبثت به فى وله ، وشرعت تبكى وهى تقول له : « آه يا حبيبى انطون ! كم أنا شقية معذبة بسبب حبك ! » .

— ما المسألة « ما الذى يزعجك »

— لقد أرغمنى أخى على أن أقطع صلتى بك ، وقال لى إننى لو حاولت مقابلتك بعد الآن فسوف يتعقبنى أو يكلف من

يجعبنى ، إلى أن يعرف محل إقامتك والخدمة التي تدرس بها .. وسيضربك !

— يضربنى ؟ ولماذا ؟ هذا شيء عجيب . ثم إن ضربى ليس مسألة سهلة إلى هذا الحد . ننى وسعى أن أقاتل قتالا مشرفا عند اللزوم . ولكن ما هى المسألة من بدائتها على كل حال ؟

فقمعت روزا دموعها ثم سألته بصوت خافت : « هل تحبى حقاً يا أنطون ؟ »

— طبعاً . وأنت تعلمين ذلك . هل نسيت بسرعة ما كنا نبتنا فى المرة الماضية ؟

— ألا يمكن لأى شيء أن يغير من هذا الذى بيننا ؟ أعنى لم فرض واكتشفت أننى لست تلك التى تظاهرت أمامك أنى هى .. وإن اسمى ليس حقيقة « روزادو » .. وأنه ما من قطرة دم إسباني واحدة تجرى فى عروقى ، وأننى اختلفت ذلك كله ..

فتناول إحدى راحتىها وطبع عليها قبلة حانية ، وهو يقول :  
« يا لك من فتاة مضحكة ! هل اختلفت كل ذلك حقاً ؟ .. فأموات براسها إيجاباً .. فضحك وقال : « وإن لم تكن « روزا روزادو » ، فمن أنت إذن ؟ »

— أوه ! مستكرهنى إن قلت لك من أنا فى الحقيقة !

— ربما كرهت الاسم إن كان فظيماً ، ولكن ذلك لن يحلمنى على كراهيتك . هيا . هيا . قولى ما هو .. أنه بلا شك اسم من تلك الأسماء البلهاء المضحكة ..

فقاتلت فى صوت ينم عن اليأس : « روزنبرج . اسمى روزا روزنبرج . وأخى « لين » صهيونى متعصب . وهذه هى المسألة من أولها إلى آخرها . وقد أبلغه شخص ما بالعلاقة التى بيننا ! »

فأسقط يدها من يده وحلق فيها غير مصدق أذنيه : « هل أنت يهودية ؟ » .. ومرة أخرى أموات براسها ، وقد ثبتت عينها فى عينيه ، والجزع انبثس مستول عليها ، وقالت بصوت يكاد لا يسمع :

— لا حيلة لنا فيها ولدنا فوجدنا عليه آبائنا !

ولما وجدته صامتا لا يجيب : أودفت : « إن كان لا يهينى أنك عربى ، فلماذا يهكم أن أكون يهودية لا .. فدفن وجهه بين يديه ، محاولاً إقصاء المشاهد التى تراجمت أمام ناظره ، وراحت أصوات الطائرات السوداء الصغيرة تطن فى أذنيه ، وهى تزداد اقتراباً وانقضاضاً !

وأحس فجأة ببرودة تسرى فى أوصاله ، وأرتجفت أعضاؤه ، وحاول أن يرغم نفسه على النظر إليها وهى مسترخية بجواره على الأرض ، وشعرها الفاحم الغزير الجميل يحيط كانهالة بوجهها الجميل الشاحب ، وعيناها السوداء والكبيرتان كأنهما بحيرتان من الدموع .. ترأى له هذا كله ، وبقدر ما كان كله عزيزاً عليه منذ لحظات قليلة ، لم يعد الآن يرى له معنى .. أو يحرك ساكناً !

واستجمع شتات إرادته ليقول شيئاً : « المفروض فى الظروف العادية ألا يهمنى شيء من هذا . أى لو أن اليهود لم



يفتصبوا وطني « ولم يفعلوا بنا ما فعلوا . أما وقد عرفت الآن حقيقتك ، فمن المستحيل علينا ان نستمر في علاقتنا هذه . والذنب ليس ذنبك طبعاً ، ولكنه حظنا العائر .. فلان يكون في وسعي ان ارى فيك بعد الآن «روزا روزادو» التي احببتها .  
واعياها ان ينظر إليها ، فارخى نظراته وثبتها على كعب حذائه ، وعلى خنفساء صغيرة سوداء كانت تدب على الأرض ببداً وسط تيه من الأعشاب الجافة والأوراق الميتة .. وأسراب من النمل تدب أيضاً في ذلك التيه .. إنه التيه .. التيه .. في البرية !

ونذرت إليه روزا وقد قسما قلبها وتحجر ، وعندما تكلمت كانت الفناطلها وعباراتها اشبه بالشواظ الملتهب .. بل اشبه بالبعوضات .. تلك البعوضات التي رمت بها المرأة الإسرائيلية المجندة أباه يوم الرحيل المشؤم من اللد .. وقالت له ممرارة : « إنه التعمص ضد الساميين ! »

فنظر إليها بأسى وقال : « هذا مستحيل طبعاً . لان العرب أيضاً ساميون ! »

— وإن يكن .. فأنتم تكرهون اليهود على كل حال !  
— ليس لأنهم يهود . كلا . فقد كنا لا نكرههم قبل النكبة . وكان في فلسطين يومئذ يهود كثيرون ، وفي مدرستنا كان اليهود يدرسون مع المسلمين ومع المسيحيين جنباً إلى جنب بلا تمييز في المعاملة . ثم جاءت النكبة ، وتغير كل شيء !

ونهبست قائمة على قدميها ، وهي تنضو الأوراق الميتة عن ثوبها المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذي تتخيره وأمسها جداً

في نصفه الأسفل ، لأغراض لا تخفى ! .. كذلك نهض أنطون وراح ينفذ الشوائب عن ثيابه ، وهو ينظر إليها بشروء .. أهذه حقا هي الفتاة التي رآها تبرز من خلف الأشجار منذ أقل من نصف ساعة ، فقفر قلبه لرآها ورقص رقصة العجبور والليفة والجنين ؟ أهذه هي الفتاة التي كان منذ دقائق معدودة يرثف الرضاب المسقطب من بين شفتيها اللذنين وهو يحسب ان لذات الدنيا القلت إليه مقابلديها ؟

لكم يبدو له كل هذا الآن وكأنه حلم أو سراب ! فيها هي ترفو إليه كسيرة الخاطر . ساخطة عليه لأنه أذى احساسها ، ولكنه — يا للعجب ! لا يستطيع أن يشمر نحوها بأى شفقة أو رحمة . فكل ما يحسه إزاءها هو الاستنكاف والقنوط .

رفيما هما يعودان إلى الأرض المكشوفة في المتنزّه . قالت له : « لم يدر بخلد في وقت من الاوقات ان هذا اللقاء سيكون لقاء الوداع . او ان الوداع سيكون على هذه الصورة . وكنت أؤمل دائماً ان أجد ثقرة استطيع ان انفذ منها إلى استمرار علاقتنا برغم كل شيء ، غير مبالية بغضب شقيقي . لأنني كنت أخالك لن تبالي بأنني يهودية ما دمت تحبني حقا » .

— يؤسفني ان هذا مستحيل !

وعندما صارا فوق الممر المغروش بالرمل ، قالت له : « لا تات معي إلى محطة السيارة العامة . لا حاجة بك . ذلك ممن

الخير الايرانا أحد جهارا ، غربا كان « لين » كلنا أنا هنا  
او هناك . فقد أقسم أن يقتلك ضربا لو وقعت عينه عليك ! » .

— أنا لا أخشى أخاك !

ووقفت لا تتحرك ، ثم قالت بصوت متحرج : « هو  
الوداع إذن ؟ » .

— نعم !

— ليكن إذن ما تشاء ! وداعا !

وأدارت له ظهرها فجأة من غير أن تمد يدها أو يمد يده .  
وراحت تحت الخطى إلى محطة السيارات العامة ، من غير أن  
تنظر خلفها . . ولم يرقبها انطون وهي متصرفة ، بل سار على  
مهمل وهو مطرق إلى الأرض . كان الاسى يملأ قلبه ، ممزوجا  
بالحنق والضيق الشديد . وراح يشاء هل سيجد في نفسه  
الشجاعة الكافية كي يخبر وليدا بهذه المغامرة !

وإذ ذكر وليدا استولى عليه فجأة حنين جارف إلى الاردن . .  
إلى فلسطين . وساوره ندم ماسم لأنه في الأسابيع القليلة  
الآخرة لم ي فكر في فلسطين ! . لقد أجلت هذه العلاقة  
الحسية المشبوبة افكاره الوطنية عن ذهنه ، فأنزوت في  
مؤخرة رأسه !

أجل ! لم يستطع في هذه الأسابيع أن يفكر في شيء سوى  
روزا ، واستولى عليه احساس بالاثم والخرى من نفسه .

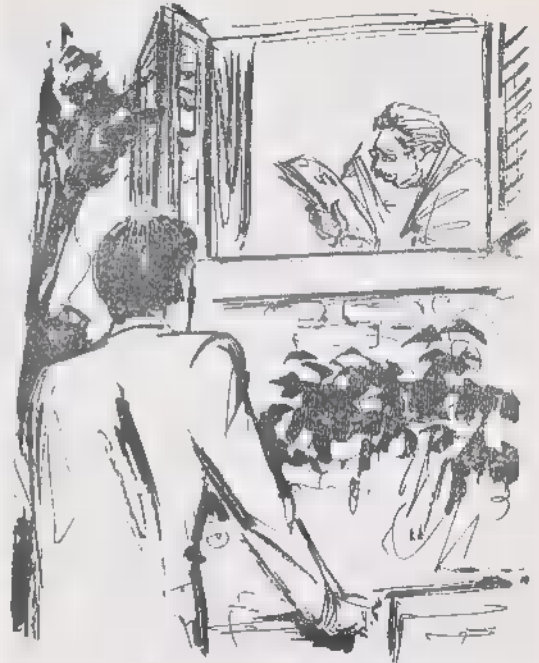
واحس أن وليدا لو عرف عنه هذه السقطة لاحتقره أشد  
الاحتقار . . لأنه أحب فتاة هذا الحب الشديد ، بل لأنه سمح  
لهذا الهوى أن ينسيه الهدف الأكبر ، بل الأوحد ، لكل عربي  
فلسطيني جذير بهذا الاسم . . وذلك الهدف هو تحرير فلسطين  
.. وهو يتمثل بالنسبة لهما في طريق بئر سبع . .  
وعندما اقترب من الدار ، رأى جده جالسا بجوار النافذة  
المفتوحة يتصفح « التايمس » . . وخامره احساس غلاب ،  
ولكنه احساس أورثه راحة شديدة ، بأنه سيعترف له الآن  
بكل ما أخفاه عنه من قبل !

— ١١١ —

اكتب اناطون على الدرس والاستعداد للامتحان ، عسى ان يجد في ذلك ما يصرفه عن التفكير في هذه العلاقة المؤسفة ، ولا سيما بعد ان سرى جده عنه ، وصارحه بأنه كان يعرف ما يجري وراء ظهره منذ البداية تقريبا ، وكاشفه بأنه رآه مع الفتاة بعد اول خلوة لهما داخل الغابة ، ولكنه أثار الصمت والانتظار إلى ان يبوب له شخصيا من تلقاء نفسه بما هناك !

وأدى اناطون امتحانه بنجاح ، وطلبت منه والدته ان يمضي جزءا كبيرا من عطلة معها . وسره ذلك ، فامه لا ترهقه عافيا بصحتها ، لانها مشغولة في الغالب بأعمالها . وهو لا يشعر بأنه يعرف عنها الكثير . بخلاف جديه اللذين يقضيان الوقت كله معه ولا يدعان له خلوة أو استقلالاً بالمعنى الصحيح . ومع هذا التباعد ، كان ثمة شيء عميق بينه وبين أمه ، شيء أعمق من الرابطة التي بين الأم وابنها الوحيد . وهذا الشيء يقوم في جوهره على التجربة المشتركة والمحنة المشتركة : محنة الهجرة ، والمسيرة الميئة في البرية ، وإعباء التربة وآثارها ، بما في ذلك آثار الاغتراب في أريحا .. ووفاء حائلها الحبيب بطرس منصور .

وفي الأيام الأولى التي قضاها في مسكن أمه الخاص ، بوسط لندن ، كتب اناطون إلى وليد يقص عليه ما كان من أمر روزا



وعندما اقترب من الدار ، رأى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة يتصفح « التابيس » ..

« إن جدى يعتقد انى كنت قاسيا على الفتاة - جائرا في معاملتها . ولعلنى كنت كذلك ، ولكن ما حيلتى في ذلك ، ولم يكن هذا البئر الحاسم إلا إجراء ضروريا لا محيص عنه . لقد كانت الحقيقة المفاجئة التى تكشفت لى صدمة عميقة ، أعادت إلى وجدانى المناسبة الكبرى بكل ما فيها من مرارة وقسوة وعذاب .. لم أعد أحس إلا بان تلك الفتاة واحدة من ذلك الجنس الذى اغتصب أرضنا ، وفى وجود وطننا ، وشردنا بلا رحمة ، وبلا حق ، وبلا ضمير !

« وأنا لم أبح بهذه المسألة المحزنة لأحد سوى جدى وسواك . وكنت قد أخبرت زميلا لى فى الدراسة ببدابة هذه العلاقة ، ولكنى كتمت عنه نهايتها ، واكتفيت بقولى له اننا افترقنا لتعذر الالتحاق بيننا فى الطباع .. والحقيقة انى كنت عاجزا عن الدرس أو التفكير فى أى شئ ، وأنا فى تلك الدوامات التى جرفت حواسى فجأة . تصور انى لم أكن قادرا حتى على التفكير فى فلسطين ..! »

« أما الآن - وقد انجلت هذه الغاشية - فأنا فريسة ندم شديد وخجل أشد ، لأن مثل تلك العلاقة الحسية استطاعت أن تستولى على زمامى إلى هذا الحد ، أعنى إلى حد نسيان قضية فلسطين وخطة بئر سبع . وإلى حد انى خدعت جدى وكذبت عليه ، وهو الذى أحبه حبى لأبى الراحل .

« وأعجب ما فى الأمر انى لم أستبشع الكذب والخداع

وأنا فى غمرة ذلك الهوى الجارف ، بل وجدتهما آمريين طبيعيين جدا . أما الآن فأنى لا أتصور كيف أقدمت على ذلك .. وبهذه المناسبة لم يخطر ببالى - فى هذه السنوات الأربع - وأنا بعيد عن الاهتمام بالفتيات - أن تكون لك علاقة بفتاة . أما الآن وقد حدثت لى هذه المفارقة - فأنى اتساءل : أليست لك فى الأردن فتاة تهواها ؟ وإن كان ذلك صحيحا ، فهل تعرف كيف تهتم بعملك وخطمك الوطنى وأفكارك ومطالباتك كالعادة ، وأنت فريسة هذا الهوى !

« ومنذ أيام كنت واقفا مع والدنى فوق جسر لندن ، ننظر إلى ما يسمى « البركة » من تحتنا ، حيث تفرغ سفن قادمة من شتى أنحاء المعمورة حمولتها ، فتلقفها منها سيارات النقل لتمضى بها إلى كل مكان فى إنجلترا . ورأينا سفينة سويدية تفرغ حمولة من الأخشاب ، وإلى جوارها سفينة بيشمار صغرة حديثة جدا ، وتساءلنا من أين عساهما جاءت . وإذا بنا نبين انها سفينة إسرائيلية محملة بالموالح . وفى الحال انصرفنا ونحن فى منتهى الألم ، لأننا لاحظنا وجود كميات كبيرة فى الأسابيع الأخيرة من البرتقال « اليافاوى » فى متاجر لندن . وقد يكون جانب منه مجلوبا من مزارع ال منصور بالذات !

« وتحاول أمى أحيانا أن تشرح لأصحاب المتاجر وللبائعين حقيقة الموقف ، وقد حدث من هذا القبيل ذات مرة أننا ذهبن معا لنشتري بعض الأزهار لتزيين

التي اختارتها والدتي كانت من نوع فادح الثمن وتسمى «جلادبوليس» ولذلك سألت عن مصدرها فقبل لها اتيت من «إسرائيل» ، فقلت أهي للمرأة التي تتولى البيع : «إن فداحة الثمن سبب للإحجام عن الشراء . ولكن كونها من إسرائيل سبب ادعى للامتناع عن شرائها ، فاسرائيل كما تسبونها ليست سوى فلسطين المحتلة . وأنا شخصا أرمله فلسطيني كان واحدا من بين مليون عربي لاجئ طردوا من ديارهم واغتصب اليهود وطنهم ، من غير أن يفكر أحد في محيرهم ، ولا حتى في تعويضهم . مع أنه ما من مال - ميماء عظم مقداره - يمكن أن يعوض الناس عن وطنهم وشخصيتهم القومية » .

« ودهشت المرأة لهذا الذي سمعته ، وقالت إنه لم تكن لديها أدنى فكرة عن هذه الأوضاع . بل لقد استعملت كلمة «فخيل» في تحت ما حدث من اليهود . ولكن عندما مررنا من هناك بعد أسبوع ، وجدنا أزمسارا جديدة من نوع «الجلادبوليس» في المتجر ، ووجدنا من البرتقال «الياغوى» أيضا في قسم الفواكه التابع للتجر نفسه !

« وأنا اعتقد أن معظم الناس هنا في إنجلترا لا يعرفون حقيقة الصهيونية . ولكن الأدهى من هذا أنهم لا يبالون حتى أو عرفوا تلك الحقيقة المرة ، لأن اليهود هنا منبثون في كل مكان ولهم اتصالات كثيرة » أما العرب فهم بعيدون عنهم ولا يعرفون عنهم شيئا إلا بالسماع « أو عن طريق التخيل ، باعتبارهم سكان صحراء ورعاة إبل ! أو على الأكثر أهل مغامرات على طريقة أفلام ابن الشيخ !

« أجل ، ليس من السهل على الإنجليز أن يحسوا بإحساس العرب ، لأكثر من سبب ، وفي مقدمة هذه الأسباب : الجهل . . . أما اليهود ، فلهم نفوذهم في صفوف الصحفيين والكتاب وملوك السينما ومثليها ، وبين الرسامين والموسيقيين ، وهم يضامون غيبا بينهم على الدعاية لسلالتهم ، وإيقاء العرب وراء الستار !

« وأنها لظاهرة عجيبة أن يسود الجهل بالعرب على هذه الصورة وإلى هذا المدى المذهل ، في الوقت الذي صغرت فيه رقعة العالم ، وصارت القاهرة وبيروت ودمشق على قيد ساعات قليلة من الطيران التجاري من لندن . . . وفي الوقت الذي ربطت فيه الإذاعات والصحف أرجاء المسكونة .

« قريبا يا وليد سأكون معك ، فسيبحون لي بقضاء عيد الميلاد القادم في «رام الله» ، وسأذهب إلي (بيت لحم) لزيارة أمين . فإن كنت في رام الله عند حضوري ذهبنا إلى بيت لحم معا . وأنا في الحق عاجز عن التعبير لك عن مدى تلهفي على العودة إلى فلسطين . . »

\*\*\*

وبسرعة جاءه رد وليد على هذه الرسالة ، وبشيء من التطويل ليس معهودا في وليد : « سرتني أنباء عودتك المرتقبة في شهر ديسمبر ، وأرجو أن تخاطرنى بموعد وصول طائرتك ، وسأحاول أن أدير وصولي إلى هناك في يوم ٢٢ ديسمبر أو بعده بقليل ، لأنني منذ ٨ أكتوبر - وهو بداية الفصل الدراسي - وأنا أدرس في جامعة بيرزيت الجديدة » وعطلة

عيد الميلاد عندهم تبدأ في ٢٢ ديسمبر « ومدةها اسبوع واحد » .

« وسأقضى معظم العطلة في ( الخليل ) من اقاربى ، ولعلنا نحظى بقضاء بضعة أيام معا هناك ، وإن كان من غير المنتظر ان نتمكن من مغادرة تلك المنطقة في هذه المرة إلى حيث نعلم .

« أما سؤالك عن الفتيات ، فاعلم انى لا اهتم بشأنهن إطلاقا ، فانا شديد الانهماك في دراساتى ، وفي ذهنى مسائل كثيرة جديدة فضلا عن هذا كله . وانى لانسف لأن بدايتك في الحب كانت متعثرة على هذا النحو . وأتمنى لك حظا اسعده في المرة التالية، وإن كنت أنصحك بتأجيل هذه « المرة التالية » إلى ما بعد عام التدريب « حتى تتجنب التعقيدات التى تدخل الاضطراب على أى شيء يمكن أن نقرر المضى فيه .

لقد أطلقت شاربى منذ التحقت بجامعة بيروت الأمريكية ، وقد أرفقت بهذا الخطاب صورة حديثة لى ، حتى يتسنى لك التعرف على شخصى عندما ترائى في المطار . . . مع السلامة .

« وليد حسين »

- ١٢ -

قضى انطون اسابيع كثيرة يتعلم على يدي جده روبرت طرق التدريس للعميان والتفاهم معهم ، وطرق التفاهم مع الصم والبكم عن طريق الإشارات واللمس باليد . واقترض من صديقه مستر جونز - وهو مدرسه الخاص السابق - عددا كبيرا من الكتب في التربية وعلم النفس ، كان يطلعهما بنهم ويردها ليقترض كتابا غيرها . وكان مستر جونز يوجهه أيضا إلى مطالعة كثير من الكتب التى ساعدت على تشكيل ذهنه وتوسيع آفاق تفكيره .

ولم يكن يزعجه عاطفيا في تلك الفترة سوى والدته . وكما تمنى لو أنه استطاع ان يصنع شيئا لارضائها ، ولكن ارضاءها كان غادح الممن جدا : لأنها لا ترضى بأقل من تخليه عن نصيبه على قضاء تلك السنة في الأردن . وكانت هذه الفكرة قد ازدادت إلحاحا على ذهنه ، منذ منى بتلك الصدمة العاطفية في علاقته بروزا . وكانت أمه قد وافقت على خطته مرغمة أو شبه مرغمة ، إلا أنها قالت له - بمرجع العبارة - إنها تمنى لو غير رايه قبل فوات الأوان . ولكنه رد عليها بأنه يعلم سلفا أن رايه قاطع ونهائى ، ولن يهلهل عليه تعديل .

ومساءها ذات يوم في ضراعة : « لماساذا تقنين هذا الموقف المناهض لسفرى إلى موطنى ؟ » . . . ولم تستطع ان تقول له : « لأنك كل ما بقى لى من بطرس ، فان عدت إلى الأردن فمكنت

هناك تلك السنة بطولها ، فمعنى ذلك أنك خرجت من حياتي ماها كاملا ، او ربما إلى الأبد ، ، ولكنها اكتفت بأن تقول له ببساطة : « لأننى سأشعر بالوحدة والوحشة بدونك » ، فقال لها بحرارة : « ولكنى سأكتب اليك باستمرار . وسيكون في وسعك أن تأتى لتمضية فترة من الوقت معى هناك ، عندما تغلظين بعطلة من عمالك المصحى المكتبى » .

وباستمرار قالت له : « لن أستطيع العودة إلى الأردن . لن أستطيع » ، فاجابها فى ابتئاس : « لكم تشعيرتني بالشقاء ، وتعلمين المذهب عسيرا على جدا ، مع أنك تعلمين انه لامناس لى من ذلك » .

— انى أسفة جدا لايلامك يا عزيزى . وانت بطبيعة الحال صاحب الراى الأخير فيما ينبغى ان تصنع - وإن كان ذلك لا يروقنى ، وبجشمنى عناء نفسيا شديدا . فكن امينا مع نفسك ، واصنع ما يوحيه اليك عقلك وضميرك . ولكنى فى الوقت نفسه لا يسعنى من جانبى إلا ان اكون امينة مع نفسى . وبوحى من هذه الامانة اصدقك القول ان رحيلك يسبب لى المأسا شديدا .

\*\*\*

وقبيل عيد ميلا « أنطون » الثمانين عشر كانت أمه قد حدثته برغبتها ورغبة جديه فى إقامة حفل له ، لأنه سوف لا يكون حاضرا فى اعياد الميلاد ورأس السنة ، ولا فى عيد ميلاده التاسع عشر . وسيكون هذا الحفل آخر حفل يحضره قبل امتحان الفصل الدراسى الثانى والآخر فى مدرسته . وهو

الامتحان الذى يرجو ان يتفوق فيه كما تفوق فى امتحان الفصل الدراسى الأول . وقد شجعهم على ذلك أن يوم عيد ميلاده يوافق يوم السبت ، وهو يوم مناسب جدا لدى الإنجليز لإقامة الحفلات الخاصة ، وسيكون فى وسعه ان يدعو من يشاء من أصدقائه وزملائه الطلاب .

وصحك أنطون ليدارى عزوه عن تلك العطلة قائلا : « الحقيقة اننى بغير أصدقاء بالمعنى الدقيق للكلمة ، وليس راغبا فى أن تقام لى حفلة فى هذه المناسبة ! » . واشتد الجدل بينه وبين جدته وأمه . إلى أن تدخل جده فى المناقشة ، وأنقذ الموقف بقوله : « لماذا لا ندع الفتى يختار طريقته الاحتفال بعيد ميلاده على النحو الذى يهواه ؟ فهذا عيد ميلاده هو » بعد كل شيء ! » .

وراحت ماريان تغلظ إلى ابنيها تارة وإلى ابنيها تارة أخرى « فى استياء واضح ، ولكنها غلبت على أمرها فسالته انطون : — قل لنا ماذا تفضل أنت ؟

— أفضل ان نتناول العشاء معا فى البيت كالعائدة . نحن الاربعة فقط ، ونقتسم فيها بيتنا زجاجة من النبيذ الفوار .

ولكن الجد قال بلهجة حاسمة : « ليكن ، ولكنى أصر على ان يكون شراينا فى تلك الليلة الشيمانيا دون سواها » .

\*\*\*

ويبدو أن ماريان كانت مصمة إغيا بينها وبين نفسها على فرضى شيء من الجو الاحتفالى الاجتاهلى على تلك المناسبة ،

فقامت - من غير أن تخبر أحدا بعزمها - بتوجيه الدعوة إلى زوجين من أصدقائها هما آل براون ، لتضاء السهرة في البيت بعد المشاء في ذلك اليوم . وكان « ديزموند براون » هو مدير الإعلانات في دار صحافة الشرق الأوسط التي تعمل بها ماريان . وهو في نحو الثلاثين من عمره ، وسيم الشكل ، واسع الاطلاع في شئون الشرق الأوسط ، وفي خلقه نطق وايناس - في نثر ماريان على الأقل - أما زوجته « سوزي » فليبت على مستوى عالٍ من الثقافة ، ولكنها دمية جميلة جدا ، ومن ذلك النوع من النساء الذي يستخدم للزينة !

وكانت ماريان قد دعيت مرارا كثيرة في بيت هذين الزوجين ، وهو بيت صغير أنيق ، وسبق لها أن دعتهم كثيرا في بيت والديها . ولكن لم يسبق لانطلقوا ان التقى بهما لأن حضورهما إلى بيت آل ملبى كان في المدة التي قضاهما انطلقوا في معسكرات التدريب . فخطر لها ان هذه هي المناسبة المناسبة للالتقاء لدعوتهما ، للاجتماع به والتعرف إليه ، وأن وجودهما سيزيد من بهجة السهرة ويخرجها عن المألوف .

ولم يرحب انطون بالفكرة عندما علم بها في يوم عيد ميلاده ترحيبا حارا ، ولكن جده سرى عنه قائلا : لا عليك يا بني . فلن تجد نفسك مطالبا بالاجتهاد في تخير الاحاديث مع مسز براون ، لأنها لا تفقه اى نوع من انواع الحديث . أما زوجها فيجيد الكلام ولا يجيد الاصغاء . وستكون على خير حال وانت ملتزم بالصمت ، تصفى لما يقول الزوج وتما عنيك من الزوجة الحسنة ! » .

وقطبت الجدة حاجبيها وزجرت زوجها ، طالبة منه أن يستغفر ربه لما تفوه به من الاغتياب ، واتهمته بأن الشهبانيا صعدت إلى رأسه ! . فلم يسمعه إلا أن يسكت ويترك ، واتجه إلى المذيع فادبر مفتيحه ، وإذا بالباب يطرق ويدخل الخيفان .

واستقبل انطون المضيفين بتحفظ شديد ، ولفت نظره إسراف الزوجة الشابة في استخدام الحلى الصناعية البراقة ، وإغراقها في التضمخ بالعمور الفاخرة ، وإسرافها في اغداق ابتساماتها التي تكشف عن صفين من الأسنان الجميلة . أما « ديزموند » - الزوج - فلم يشعر نحوه انطون بارتياح ، رغم انافته الشديدة ، وابتسامته وتحذقه في تخير ربطة عنقه !

ونشطت الجدة لصنع القهوة ، ودعا الجد مسز براون لتناول شيء من الشهبانيا ، فقالت بجذل كالاطفال : « شهبانيا ! انكم توسعون على أنفسكم كما أرى ! » . فقال ملبى وهو يملأ لها كاسها : « إن الفتى يبلغ الثامنة عشرة مرة في العمر !

وانتجوزت ماريان هذه الفرصة فالتفت تذكرها : « ولا تنسى ايضا أن « انطون » سيرحل إلى الأردن بعد انتهاء الدراسة ليقضي هناك سنة كاملة » .

وكان تعليق سوزي عبارة عن ابتسامة أخرى مشرقة - وإن كانت خالية من المعنى ! - أما زوجها ففتح الله عليه بعبارة أراد ان يدل بها على سعة اطلاعه على مسائل الشرق



الأوسط ، فقال : « سمعت أنك عائد إلى أشد بقاع الأرض انخفاضاً ؟ » .

فأجابيه أنطون بفنور : « سأذهب إلى أريحا » فيما اعتقد لجرد الزيارة الخاطئة . واكنى في الغالب ساقم مع عمى في ( رام الله ) قبل أن أذهب لتولى مهام عملى في ( بيت لحم ) .

— ولماذا لا تطير مباشرة إلى بيروت ثم تستقل طائرة الصباح إلى القدس ؟ ليس هذا أبسط وأسهل ؟

— بل انى افضل الطيران إلى عمان ثم أذهب إلى رام الله عن طريق أريحا بالسيارة . فالفكر إلى أريحا في الصباح الباكر متعة نادرة ، ثم انى متفق مع حديق لى على أن يلتقيا في المطار ثم نذهب معا لتناول « الفول » في احد مطاعمها قبل استئناف السفر .

وهتف جده بحباسة : « الفول ! ما أحلى الفول بالأرغفة المستديرة العربية الرقيقة ، سواء اكلناه بالزيت والليمون ، أو بالزبد الطازج ! » .

واقبلت الجدة في هذه اللحظة إلى المطبخ حاملة أدوية القهوة وأخرج ملهى زجاجة من كونيكا « كورفولازيه » الفرنسي المعتقد ، وتولى أنطون توزيع القهوة والكونيكا ، في حين راحت ماريان تشرح لضييفتها الحسنة « سوزى براون » صعوبة الحياة في أريحا ، وكيف كانت تستجلب السمك في صناديق من الثلج من ( العقبة ) .. فصاحت سوزى :

— العقبة ؟ ما هذا الاسم ؟

فقال ملهى : « إنما ميناء على البحر الأحمر . غالباً يهود قد اغتصبوا ساحل البحر الأبيض لأنفسهم ، والأردن ليس بهما بحر سوى البحر الميت » .

— وماذا عن بحر الجليل ؟

فقال زوجها بحذق : « بحر الجليل يوجد الآن في إسرائيل » .

فقال أنطون بحزم وهو يقدم له آنية السكر :

— بل قل فلسطين المحتلة !

فقال ديزموند بهزيد من الحذق : « إسرائيل امر واقع ، سواء احببنا هذا أو لم نحبه . والأولى أن نكون واقعيين » .

وكان يتكلم وقد وضع ساقاً على ساق ، وهو يهز قدمه أثناء الكلام « وابتناساته المتكلمة متقنة جداً وأنيقة مثل رباط عنقه تماماً . وشعر أنطون بازدياد بغضه له . وتساءل بينه وبين نفسه : ترى هل يكرهه جده كذلك ؟ ولكن الجد لم يكن يبغضه في الواقع ، وإن كان يضيق به ضيقاً شديداً ، ويراه ثقیل الظل ، ويشعر بالغث لهدار الكونيكا الجيد على مثل هذا الرجل السخيف !

ويبدو أن الشبانى التى شربها أنطون على العشاء بكثرة ، زادت من ثورة غضبه ، وجعلته أشد اندفاعاً وجرأة .. فقال على سبيل التحدى : « بل إن الواقعية تقتضى منا أن

نسمى الأشياء بأسمائها !! ووطئى الذى ولدت به اسمه  
فلسطين . وبهذا الاسم عرف من آلاف السنين . ويوما -  
ليس بعيد - سيعود هذا الاسم إلى الوجود من جديد ! » .

وغنم ملهى بالعربية : « إن شاء الله . . » فقال ديزموند  
بسخافة : « أشك كثيرا أنك سترى هذا اليوم ! » .

.. فطار عقل أنطون ، واندهش يقول : « أن جيل  
الفلسطينيين من فى سنن سيرون هذا اليوم ، لأننا ستمعل  
على تحقيقه ! » .. ثم ارتفع صوته وهو يعلن بضراوة :

— سستحرر فلسطين على يد الفلسطينيين !

فارتسخت على وجه ديزموند علائم التفكه المزوج بالتمك  
وقال له وهو يكسر جفن إحدى عينيه : « على يد جيش التحرير  
الفلسطينى لا » .

— اجل . وسيعمل هذا الجيش السرى فى داخل إسرائيل  
نفسها . سيكون لنا هناك طابور خامس !

— أمو التسلل الجماعى ||

— ليس جهاعيا . بل تدريجيا . وقد يستغرق ذلك - لنا  
بضع سنين .

فالتفت ديزموند إلى كأس الكونياك وراح يديرها بين يديه  
ليذفئها ، ثم قال : « أخشى أن تستغرق فعلا هذه العملية  
سنوات تتجاوز المدة المقدورة لحياك ! » .

وتدخل ملهى فى الحديث قائلا للضيف : « ينبغي أن تسمح

للشباب بأعلامه الخاصة . ألم تكن لك أحلامك وأنت فى  
الثامنة عشرة ؟ » .. فقال ديزموند بلهجة جافة : « عندما  
كنت فى الثامنة عشرة - سنة ١٩٣٩ - كانت الحرب قد  
اندلعت ، ولم يكن لدينا وقت للأحلام ! » .

وتكلف أنطون التثاؤب فجاء ، ثم ضحك وقال : « آسف  
جدا . ولكن يبدو أن الشهبانها هى التى أصابتنى بالتثاؤب .  
فاسمحوا لى بالانصراف . » .. ثم صاح الضيفين ، وأمسكت  
بموزى يده بين كتفا يديها ، وقالت :

— ينبغي أن نلتقى مرارا كثيرة بعد عودتك من الاراضى  
المقدسة . وأتمنى لك سفرا سعيدا .

واسرع هو بالفرار من هذا الجو . . !

## - ١٣ -

وما أن أوى أنطون إلى حجرته ، حتى أحس بازدياد وطأة  
النعاس عليه . فانتزع ثيابه انتزاعاً واندس في الفراش - من  
غير أن يتغلب أسنانه كمعادته قبل النوم - وكان يقول لنفسه :  
« كان خطا مني أن احتسى هذه الشبانيا اللعينة ، فإن الضرر  
تلك عقدة أسنانك ، ففقط مالا تريد أن تبوح به لإنسان ! » .

.. واستيقظ في اليوم التالي متأخرا ، وهبط إلى المطبخ  
السفلى ليجد جدته قد غادرت البيت إلى الكنيسة ، أما جده  
فقد قالت له أمه انه خرج ليتمشى قليلا ، ثم أردفت : « لقد  
أوشكت الساعة أن تدق الحادية عشرة » .

— آسف جدا ، فقد أصابني صداع شديد ، من تأثير  
الشبانيا في الغالب .

ووجد إفطاره موضوعا على ركن من المائدة، وكانت ألوانه  
منتقاه من بين أطعمته الصباحية المفضلة : وهى اللبن الزبادى،  
والزيتون الأسود ، والجبن والتفاح ، فاكل بنزع زيتونات ثم  
ذهب إلى المطبخ ليضع لنفسه قدحا من القهوة التركية ، ثم  
عاد ليشربها وهو يقضم تفاحة ، وعندئذ أقبلت أمه فجلست  
قبالته ، وقالت : « أريد أن انتهز فرصة انفرادنا في البيت  
لأحدث إليك .. » فنظر إليها نظرة ثابتة ، وقال : « بشأن  
ما قلته أنا بالأمس ؟ » .

— بشأن هذا الحديث عن التسلل إلى الأرض المحتلة . لهذا  
تريد أن تعود إلى فلسطين ؟ أمى الأحلام الرومانسية اليابسة  
عن التحرير على يد طلاب المدارس ؟ أهذا ما تدبرانه ، أنت  
وصاحبك وليد ؟

فحول أنطون عينيه عن عينيها ، وقال :

— أنت تعلمين لماذا أريد أن أعود . لقد أرهقنى الحنين إلى  
وطنى ، وليس لى ها هنا أصدقاء بمعنى الكلمة .

— لقد كنا متفقين في البداية على أن تقضى هناك عطلة  
سببية بعد انتهاء دراستك الثانوية ثم تعود لقضاء سنة العمل  
التدريبى هنا ، فلماذا غيرت رأيك وأصررت على قضاء تلك  
السنة هناك ؟ مع ما فى ذلك من انفصال عن أسرتك ؟

— عمى قريد وزوج عمتى خايل وأبناؤهما هم أسرنى  
كذلك .

— ولكنهم ليسوا لصقاء بك كوالدتك وجديك .

واحتسى بقبيلة القهوة التى كان يستطيعها غاية الاستطاعة  
حين شرع فى تناولها بعد أن صنعها بعناية ، لكنها صارت الآن  
ولا طعم لها ، بعد أن بردت، كما تغير طعم فمه - بما طرا عليه  
من مرارة - واستطردت أمه : « لم يواتنى النوم طول الليلة  
الماضية من شدة قلقى عليك ، بعد أن أطلقت الضرر أسنانك  
بما يدور فى ذهنك . ولم يكن عهدى بك أن تتكلم على هذه  
الوتيرة . وهالنى ما سمعته منك عن التسلل ، وتكوين طابور

عربي خامس داخل الاراضي المحتلة « بين سمع اليهود وبصرهم !  
أنطون ! الست ترى هذا كله خيالا ؟ » .

فجعل يحدث في صفحته « وهو يعيث بسبابته بنوى الزيتون  
الاسود الذى اكله من قبل ، وهو يعاهد نفسه على الا يقرب  
الخمر بعد ذلك « سواء كانت شهابيا او غير شهابيا .  
وأدرك صواب التعاليم الإسلامية التى تحرم الخمر على المؤمن  
بالإسلام ، وهو لا يعرف مسلما متدينا فى فلسطين يقربها ،  
ولا يحسب وليدا يمكن ان يمسه بيده فى يوم من الأيام !

وثاب من شروده ليسمع والدته تسأله بحدّة : « هل سمعت  
ما قلته لك ؟ انى اريد منك ان تقسم لى على انك لن تتورط  
فى مثل هذه المخاطر إن انا سمحت لك بقضاء تلك السنة  
فى الأردن ! » .

فغماغم قائلا : « انى لم اعد طفلا » .

— بل إنك من بعض الوجوه لم تزل طفلا . وما كنت  
تقول به بالامس لا يعدو ان يكون تخليط أطفال . لقد اخلجتنى  
بما تشددت به أمام الضيفين . ومن حسب الحظ ان الجميع  
قدورا ان ذلك ليس تفكيرك السوى ، وان الخمر هى التى  
عبثت بعقلك ما قلت .

— وهو ظن صائب .

— إذن أنت لم تكن جادا فيما قلته عن الطابور العربى

الخامس ؟



فجعل يحدث في صفحته ، وهو يعيث بسبابته  
بنوى الزيتون الاسود الذى اكله من قبل . .

— بل إنني أراها فكرة طيبة للغاية ، وهي ليست من اختراعى .

— قد تكون طيبة حقاً لو أنه أمكن تحقيقها ، ولكن ذلك غير مستطاع . ولو كان أبوك حياً لقال لك هذا .

— لست أذكر بالضبط كل ما قلت .

— لا بد لك من أن تعدنى بالا تقدم على حماة من هذا القبيل إن أنت ذهبت إلى الأردن ■

— ماذا تعنين بالحماة ■

— أى عمل تدرك أننى إن أفرك عليه . أقسم لى على هذا !

— فنظرت إليها وقد بدا غضبه يتحفز في داخله ، وقال

— ولماذا أقسم ؟ ألا تعنين بى ؟

— أما بعد الذى كان الليلة الماضية فلا !

— هذا إرغام وإرهاب لا حق لك فيه !

— بل لى كل الحق ، لأنى أمك . ولأنك ابنى الوحيد ، والبقية الباقية لى في هذه الدنيا . أنك تسمى ذلك إرغام وإرهاباً . أما أنا فأسميه باسم آخر : أنا أسميه طلباً مشروعا أوجهه إليك بأن تلتزم جادة اللياقة والاتزان في تصرفك . فأما أن تقسم لى على هذا ، أو لا سقر !

ثم نهضت وغادرته يعبث بنوى الزيقون في شرود ، إلى أن دخل عليه جده بعد بضع دقائق فقال له بمرح : ■ ما رايك

في قرح من القهوة يا أنطون ؟ » ، فنهض أنطون واتجه إلى الموقد ليصنع القهوة ، ولاحقه جده وهو يحشو غليونيه بالتبغ ، ثم قال له : « لقد حدثتني أمك بما دار بينكما من نقاش منذ برهة . وهى شديدة الانزعاج بشأنك ، فهلا أرحت بالها ؟ » .

— ليس أحب إلى من هذا ، ولكنها ترغب انفى بذلك القسم الذى تطلبه منى إرغامها .

— إنما تطلبه منك لتعلمن عليك . بل إنى أنا أيضا مثلها ، أريد أن تؤكد لى أنك لن تقدم على أى عمل طائش .

فقال أنطون في نفسه وهو يتنسم عبير القهوة الممزوجة بالحيهان : « حتى أنت ؟ ■ » ، ولكنّه كتم ما بنفسه وهم بأن يناقش جده ، قائلا : « وما العمل الطائش ؟ من الذى يقرر هذه الصيغة ؟ » . لكنه اكتفى بقوله له وهو يضع القهوة أمامه :

— أقدم لك التأكيد الكامل لهذا الشرط .

— شكرا لك . يجب أن تقم مثله لو أدتلك أيضا .

— سأحاول .

— تحاول ؟

— لأنه يستحيل على ذلك تحت التهديد . ثم أن بى صداعا من اثر الليلة الماضية ■ وأريد أن أخرج للسير ساعة ■ إن لم تكونوا بحاجة إلى هنا .

— قد تكون أمك بحاجة إلى مساعدتك لها في إعداد الغداء .

— سأسألها .

واتجه إلى حجرة الجلوس فأنلى أمه جالسة عند النافذة  
تقرأ ، فقال لها : « أتريدين منى أن أساعدك في تقشير  
البطاطس أو ما إلى ذلك ؟ » .. فأجابته ببرود ، من غير أن  
ترفع بصرها عما تقرأ : « لا - وشكرا لك » .

— في هذه الحالة أود أن أخرج للنزهة لمدة ساعة .. لأن منى  
صداعا .

فأجابته وهي تقلب الصفحة من غير أن تنظر إليه :

— عد في الساعة الواحدة .

— أوه . أرجوك ألا تسخطى على .

فلم تنظر إليه ، ولم تجب .

\*\*\*

وأم يعودا إلى هذا الحديث إلا في المطار قبل عيد  
الميلاد بثلاثة أيام ، وكان الوقت مساء ، فتوسلت ماريان إلى  
ابنها للمرة الأخيرة .

— عدنى أنك لن تقدم مع وايد على حماقة طائشة ! عدنى

يا حبيبي ، أرجوك !

فتناول اليد التي وضعنها في ضراعة على ساعده ، ورفعها  
إلى فمه ! وقال : « كم أتمنى ألا تغلقى بسببي أو تنزعجى لجرد

أننى سكرت قليلا في ليلة عيد ميلادى الثامن عشر ، وتفهيت  
بكلام فارغ ! » .

— هذا إذا ظل ذلك الكلام فارغا ، لانية وراءه للعمل به !

— ماذا تخالين ؟ ماذا يسعنى أنا ووليد أن نفعل لتحرير  
فلسطين المحتلة ؟

وفي هذه اللحظة عاد جده من كشك الكتب والصحف في  
المطار وقد اشترى صحف المساء وطائفة من المجلات ، فسأله  
انطون : « ألم تساورك الرغبة في القدوم لزيارنى هناك ؟ » .  
— لست أحب أن أعود إلى فلسطين وهى محتلة مفتتصة !

.. ولكن أقرىء عنى السلام تلك الشجرة العجوز عند  
الكنيسة في بيت لحم . وأبلغ القدس عنى تحية حب .

ولم تكن جدته معهم في ذلك المساء ، لارتباطها بجلسة في  
إحدى اللجان كالعادة ، ولأنها خشيت أن تخونها أعصابها في  
المطار .. وقد ودعته في البيت بالعناق والبكاء وتوسلت إليه  
أن يكتب إليها كثيرا . أما في مطار لندن فلم يبك أحد . لا هو  
ولا أمه ولا جده ، بل قبلته أمه وضمته إليها لحظة ثم  
أطلقتها ، قائلة : « انتبه لنفسك يا حبيبي ! » .

أما جده فصائح ، قائلا : « على بركة الله وفي أمان الله !  
وعد إلينا سألما » .

— إن شاء الله !

وعندما حلقت الطائرة به « قالت ماريان لأبيها :

— اليس عجيبا أن يعود إلى بيت لحم بالذات ! .. لكانتى

به عاد إلى بطرس ...

صوب تلك الألفاظ العربية ، فراح يثقلها في سرور واشتياق  
بعد طول انقطاع عنها .

ودخل مع الداخلين ، وانتظر مع المنتظرين أمام الحاجز إلى  
أن يتم فحص الأوراق . وإذا به يفاجأ بزواج عمته خليل داود  
مقبلا من باب جانبي وراء حاجز الحجاب ، ومن ورائه شاب  
وسيم ذو شارب أسود كث ، وغتاة فاحمة الشعر في ثوب  
سيفي أنيق . . وانقض خليل داود عليه وضمه إلى صدره  
وقبله على خديه ، وهو يهتف بعبارات الترحيب والتهنئة  
بالعودة إلى الوطن ، والى الشاب نفسه يحتضن زوج عمته  
ويصيح مثل صياحه بلغة عربية طليقة ، وقد انجابت عنه كل  
صلة له بانجلترا ولغتها وعادات أهلها وتفكيرهم ، ولم يقاوم  
دموعه التي انبجست من عينيه .

.. ولم يدر هل كان في وسعه أن يعرف وليدا من تلقاء  
نفسه أم لا ، لأن الشارب الأسود غير شكله كثيرا جدا ، ولكنه  
احس بأن هذا هو وليد حقا حين عانقه وهتف بعببارات  
الترحيب ، وضحك تلك الضحكة التي يعرفها عنه جيدا . .  
وبعد أن خفت حدة هذا الاضطراب الذي غمره لأول وهلة ،  
نظن إلى وجود الفتاة ، فتقدمت صوبه على استحياء ،  
وسألته :

— ألا تذكرني ؟

وتردد أنطون قليلا ، فصاح وليد :

— أنت ولا شك تذكر « ثريا » !

## المسودة

— ١ —

احس أنطون بفرحة طاغية لم يشعر بها من قبل والطائرة  
تدخل به سماء ( عمان ) من فوق القلال الصحراوية الجرداء ،  
حتى لقد نازعته نفسه لأول مرة في حياته إلى الغناء والصياح ،  
ليففس عما في أعماقه من الجشيان . . فان هي إلا لحظات  
قلاتل حتى يرى وليدا ويعانقه ويتحدث إليه بعهد كل هذه  
الفترة الطويلة التي امتدت أربع سنين . لقد انقرا تلميذين ،  
وهاهما الآن يلتقيان وقد غدا وليد شابا ذا شارب كث .  
وعجز أنطون عن تصور شكله ، فاستخرج من حافظة نتوده  
صورة وليد الشمسية التي كان قد بعث بها إليه ، وجعل  
يتطلع تأملا تفاسيها . .

وخيل إليه أن دهرا حلويلا قد انقضى قبل أن يفتح باب  
الطائرة وقد هبيلت على الأرض وجرت فوقها مسافة طويلة ،  
ثم بدا الركاب في النزول ، فصافحت وجوههم أنسام الفجر  
الرميلة قبيل شروق الشمس . وام يستطع أنطون أن يتبين  
وجه صديقه بين زحام المنتظرين ، ولكنه راح يلوح بيده ،  
موفنا من أن وليدا سيتبينه !

وعبر أنطون المسافة بين الطائرة ومبنى المطار ، وأقبل  
المظفون على فحص جوازات السفر ، وصافحت آذنيه من كل

وضحكت الفتاة عندئذ ، ففطن إلى أسنانها غير المنتظمة .  
ولكن عدم انتظامها لم يعد الآن ذا بال ، لأنها في هذه السنوات  
الأربع قد تغيرت على نحو ما ، فأصبحت ذات جمال ووسامة  
.. وأبتسم أنطون ، وقال لها :

— لقد رايتك في الحفلة التي انتهت احتفالا بعودة نصي  
زوج بنت عمي من الأسر . وأذكر أنك قناهبين لدراسة  
الطب .

— وأنا الآن بالفعل في كلية الطب بجامعة بيروت الأمريكية .

وفي هذه الأثناء كان محص الحقائق قد تم . وانطلق  
الجميع في سيارة خليل لتناول الفول في مطعم صغير لطيف  
بعمان . وكل شيء يبدو في نظر أنطون وكأنه قطعة من الجنة .  
وبعد الإفطار صاح أنطون : « لكأنني أطمح لها لا أريد أن أفارق  
منه ! » .. فقال زوج عمته : « إنيأ جميعا في دار السلام  
باريحا لقضاء عيـد الميلاد . فارجو ألا يحزنك الذهاب إلى  
هناك » .

— إطلاقا ! لكم تشوقت إلى أريحا وإلى دار السلام !

وتولى خليل قيادة السيارة صوب أريحا عن طريق وادي  
الأردن ، وما يحف به من تلال عظيمة ، ويطاح متراصة « كان  
قلب أنطون يخفق لكل لحظة من لحاتها . وخيل إليه أنه وإن  
لم يكف في هذه السنوات الأربع عن التفكير في هذه النقاء ،  
إلا أن مدي سحرها قد غاب عن ذاكرته . وعندما أخذت  
السيارة في الانحدار عند جسر « النبي » اشتد الضغط على

أذنيه فأصيب بصمم وقتي من غرط الانخفاض عن مستوى  
سطح البحر . ولاحظ أن ثريا أيضا أخذت تسد أذنيها  
بأصابعها . فنظر إليها وتبادلا الابتسام ، ثم قال : « لابد من  
هذا الإحساس في الأذنين والمرء في طريق أريحا ، ولكن هذا  
كله ينسى متى وصل الإنسان إلى ذلك البلد الجميل » .

وسره أن تومئ برأسها إيجابا « لأنه ود من قرارة نفسه  
أن تحب ثريا أريحا ، وأن تثق معه في المزاج ، سيما وهو  
بحس نف ، ابتسامتها الودية ..

وسمع زوج عمته يقول : « سنبعث من أريحا إلى والدك  
ببرقية نخبرها بوصولك . أن الساعة الآن منتصف التاسعة ،  
ولكنها لا تتجاوز في لندن منتصف السابعة . ولابد أن والدك  
مستقرقا الآن في النوم ، هي وجداك ! أما بعد الظهر فمجب  
أن تذهب لزيارة مستر شابلي عميد معهد العميان . وإن كان  
المفروض ألا تبدأ العمل هناك إلا بعد عطلة عيد الميلاد .  
وستحب هذا الرجل كثيرا ، لأنه كان من أصدقاء جدك في  
صدر شبابه ، ومن معارف أبك عندما كنتم مقيمين في يافا .  
أما صديقك « أمين » الأعلى فهو يقوم بالتدريس هناك الآن .  
وقد فهمت من مستر شابلي أنك ستقيم معه في مسكن واحد  
من مساكن المعلمين » .

وعندئذ سأل وليد : « أهى مدرسة المكفوفين القائمة على  
مسح القل المشرف على طريق الخليل عند مشارف بيت لحم ؟ » .

( م ٦ - الطريق الى بئر سبع ج ٢ )



— أجل . وهى أكثر من مدرسة وأكثر من معهد ، لأنها تعلم الفتيان المكفوفين الصنائع المختلفة ، وتدريبهم على التكيف بالحياة الاجتماعية الإيجابية . واعتقد أن أنطون سيجد فى ذلك خبرة نافعة طريفة .

— والموقع مناسب أيضا كى يقوم بزيارة الخليل كلما شاء .

فقال خليل داود : « إن من يقومون بمثل هذا العمل لا يجدون وقت فراغ » .

— سنقتنع بما هو ممكن .

قال وليد ذلك وهو ينظر إلى أنطون نظرة جانبية ذات معنى ، ولكن أنطون كان فى شغل عنه بالنظر إلى ثريا وهو فى حالة انتشاء . ولما غلن وليد إلى ذلك ، ثبت نظره إلى الأمام فى الطريق التى تتلوى هابطة سوب أريحا ، وقد علا وجهه المقلوب ، ولم يفتح فمه بكلمة إلى أن اقتربت السيارة بهم من غاية الرحلة .

وما أن وقع نظر أنطون على جبل التجربة حتى هتف : « هذا هو ! كما تصوره تماما طيلة هذه المدة 1 » . ثم التفت إلى وليد وقال فى لهفة : « هيا بنا نرتقيه بعد الظهر على سبيل الذكرى » .

فذكره زوج عمته : « إنك ستزور بعد الظهر مستر شابلى » .

— نرتقيه غدا إذن ! يجب أن يقضى وليد الليلة معنا ثم نصعد الجبل غدا صباحا فى ساعة مبكرة ، قبل الشروق .

وفى وسعنا أن نأخذ معنا طعاما فنطبخ ونتغذى هناك فوق القبة . ما رايك فى هذه الفكرة ؟

— فكرة عظيمة ! وأنا سأنقضى الليلة فى بيت زوج عمك بالفعل ، لأنه تفضل فدعا ثريا ودعائى للمبيت ، كى نحضر الحفلة التى سيقمها الليلة احتفالا بعودتك .

وانتهز وليد فرصة التفتت خليل إلى ثريا ليقول لها شيئا ، فهمس فى أذن صديقه : « وسيكون الفد فرصة طيبة للحديث ! » .

ووصلت السيارة إلى بوابة (دار السلام) . وكان الخادم الذى فتح البوابة لهم هو بعينه الذى عرفه أنطون فى صباه ، وقد رحب بأنطون أجمل ترحيب بمباراته الساذجة . ولما اقتربت السيارة من شرفة البيت ، رأى أنطون الأسرة كلها مجتمعمة هناك ، فيها عسدا نصرى . . وكان معه فريد أول المبادرين إلى الترحيب به . وبوغت أنطون بازدياد الشبهة بين عمه وأبيه ! . . فهو قد اكتسب شيئا من البدانة ، وأندلع الشيب فى شعره ، ففدا أثبته ما يكون من الناحية البدنية ببطرس . أما زوجة عمه « ماجدة » التى كانت مائلة إلى البدانة طول عمرها ، فقد أصبحت الآن بدنية جدا حقبا ، بيد أن ابتسامتها ظلت دائمة ، ومودتها دائمة .

وعمته « منى » ازداد وزنها أيضا ، ولكن فى الحدود التى زادتها وقارا ، ولم تقلل من وسامتها الشديدة ، وقد ذكرت أنطون أيضا بابيه .

ونادية !.. ابنة عمه .. كان السنوات الأربع لم تكن بالنسبة لها أكثر من أربعة أيام ، فجعلها كما هو . ولم يظهر عليها أى أثر للسن ، وأطفالها الثلاثة يحفون بها ، ومن الواضح أن رابعهم سيبرز إلى الوجود بعد وقت قصير !

وبنات العملة ازداد طولهن ، ولكنهن لم يزلن على حيانهن ، وإن كانت كبراهن شديدة الاحتفال بالاناقة . وكففن عن عاداتهن في الضحك العصبى بسبب ولغير سبب !

وقبل أنطلقون يد عمته وزوجة عمه ، ونادية ، ثم أقبل الطاهى يوسف ومن وراءه زوجته لتقديم مراسم الترحيب بابن السيد القديم ، والدمسوع تترقق في عيونهما . وبعد ذلك قام يوسف بمعاونة خادم آخر بتقديم الأثرية الباردة . في حين كانت المروحة الكهربائية الكبيرة تحرك الهواء الساخن ، وقد استقر الجميع في كراسى الفيزران النخمة ، ورائحة أشجار الياسمين ، التى تحف بالشرنة ، تملأ الجو بعبر مزيف .

ولما رأى أنطون ثريا ونادية جالستين معا ، نهض ووقف بجوارهما . وقالت ثريا وهى تقلب عينيها في الحديقة الجميلة المنسقة . بما فيها من أشجار النخيل المسالية ، وبنات « الجهنمية » وخمائل البرتقال : « ما أجمل كل شيء هنا ! اتد حضرت إلى ( أريحا ) كثيرا ولكن لم يخطر ببالي أن مكانا جميلا كهذا يمكن متواريا عن الأنظار بعيدا عن الطريق . إن هذه الدار تستحق اسم دار السلام حقا ! » .

وابتسم أنطون مسرورا ، وقال : « كان أبى يحب هذه الدار كثيرا ، ويهفو إليها دائما كلما ابتعد عنها ، فهى وأخته التى ينشد فيها الطمانينة والسلام . وكان يروى لأصدقائه

دائما . كيف شعر لأول مرة بالحب لأمى في هذا الموضع . وفى هذه الدار أيضا قضى آخر أيامه ، ولفظ آخر أنفاسه » .

فقال الفتاة ، مطمطة : « كنت أعرف هذا ، ولكنى لم أكن أعرف ذلك الجانب الرومانسى من قصة حب أبيك وابنتك . ولا شك أن هذا يزيد من سحر المكان وجماله ! » .

ونظرت بنت عمه نادية إليه نظرة ذات معنى ، وقالت : « لماذا لا تطوف مع ثريا لتريها أرجاء البيت » .

— بكل سرور . إن هى شأئت !

وعلى الفور نهضت الفتاة وسارت معه . وما أن دخلا من باب الشرفة وصارا وحدهما ، حتى نازعت أنطون نفسه إلى أن يتناول يدهما في يده . ثم تذكر أنها عريضة . وأنهما في فلسطين وليسا في إنجلترا ! وإن حبسهما من اجترأ على العرف السائد أن يطونا بالحجرات معا ، وليس معهما ثالث ..

والذى البيت على حاله على حد ما يذكر . فالأبسطلة العجيبة الجميلة الفاخرة التى يعرفها جيدا ، لم تزل مفروشة فوق الأرض المبلطة بالرخام ، في الحجرات الواسعة . وهذه حجرة المكتب الكبيرة الخاصة بالمكتب ، وهذه هى كتل الأخشاب تملأ المدافق لاستخدامها في الليالى الباردة ، على نحو ما كانت تصنع امه من قبل . وهما هى زهرية تتوسط مكتب أبيه الصغير فى حجرة النوم التى مات فيها . وعلى رأس السلم طالعته الصورة النصفية التى أوصى أبوه فنانا من القدس أن يصنعها لأمه في باكورة زواجهما . ولم تكن أمه راضية عن هذه الصورة

فتركناها لخايل . وأسعده أن يجد زوج عمته قد احتفظ بها  
في مكان الشرف اليهود عند رأس السلم . وقال لخريا :

— هذه أُمِّي في شبابها . وكنت في الثالثة من عمري  
عندئذ — فاستأذنت أذكر شكلها في تلك الأيام ، وما كنت لأعرف  
أنها أُمِّي — ولكن أبى كان يحب هذه الصورة . وزوج عمتي  
خايل يحبها أيضا .

وعلى هذا النحو مضيا يتجاذبان أطراف الحديث والتعليقات  
في سهولة ويسر ، وهما يتنقلان بين الحجرات ، حتى وصلا إلى  
حجرته السابقة ، ونفذ ، منها إلى الشرفة الواسعة التي تطل  
على جبل التجربة . وعن كثب من سفحه كان يقوم معسكر  
لللاجئين ضربت فيه الخيام صفا وراء صف ، في الوف يخطئها  
الحمر !

ووفنا كلاهما في الطرف الأقصى للشرفة ينظران إلى خمائل  
البرققال ، وقد عيقت الجو أزهاره الفواحة تحت الشمس  
الساطعة ، وأخذت الفتاة تملأ صدرها من ذلك الهواء العطر،  
منقشية بهمال المنظر ، وعندئذ قال لها انحان : « ها هنا  
وقب أبى إلى جوار أُمِّي على انفراد لأول مرة ، حين صارحها  
بأنه يتدنى أن يتزوجها . ومن بعد ذلك اليوم صار هذا المكان  
أحب بقعة في الدنيا إلى نفسه . وكانت هذه الشرفة مكانها  
المفضل هو وأُمِّي إلى أن أقعده داء القلب عن صعود السلم ،  
فصار ينام في الطابق الأسفل ، ولا يبرحه . كم أتمنى لو أنه  
عرف أنني عدت إلى هنا ! » .

— بل لعله يعرف !

— لعله !

وبعد لحظة تردد ، قال لها : هل في وسعنا أن نلتقى  
أحيانا في « رام الله » مثلا ، في بيت عمتي وعمي ؟ » .

— انى أتوقع في مدة وجودى هنا — وكلما منحتنا الجامعة  
عطلة ، كعطلة الفصح مثلا — أن أزور بنات عمك . ولكذك  
ستكون مشغولا بعملك في بيت لحم .

— في وسعى ان اتدبر وسيلة للذهاب إلى رام الله بين  
الحين والحين .

ولاحظ أنها مشيخة عنه بنظراتها في ارتباك ، فقال : « لو  
كنا في إنجلترا لكان من اليسر جدا أن نتفق على الخلاقي لنقوم  
معا بنزهات على الأقدام في المنتزهات والخلوات . أما هنا  
فالوضع مختلف جدا » .

وعندئذ التفتت إليه وابتمت ابتسامة عريضة ، وقالت :  
« نعم . جدا . ولكن بعض الناس يستطيعون تدبير فرص  
اللقاء من غير أن يصطدموا بالعرف السائد . وأنا والمائة أننا  
نستطيع تدبير ذلك لو اتفقت رغبتنا فيه » .

— ما أشد رغبتي في ذلك . فبل انت راغبة أيضا في أن  
تلتقى ؟

— أجل . أما الآن فيجب الانسى العرف السائد . وعلينا  
أن نسرع بالعودة إلى حيث يجلس الباقون



— اعتقد هذا ، وإن لم يكن فيه هوى !

وغادرا الشرفة عائدين إلى الدار . وفي هذه المرة صمعا كلاهما شيئاً واحداً على غير اتفاق سابق : حينها كانا يمشيان في الحجرات بفراش ، كان كل منهما يغض بصره ويسرع الخطو متباعداً عن الآخر بعض الشيء ، وإن كان إحساس كل منهما بحاحبه قد ازداد شدة وعمقا !

— ٢ —

وفوق قمة جبل التجربة . وبين أزاهير ( الأذريون ) البرية الصقراء العطرة ، استلقى وليد حمسين على بطنه وراح يتحدث حديثاً طويلاً إلى انطون الذي جلس مسنداً ظهره إلى حجرة ، ومرسلاً طرفه عبر الوادي العريض الذي ترتفع في جوه أشجار التخليل الباسقة . وأشجار الزيتون العريقة ، وتفترش أديمه — لاصقة بالأرض — بيوت أريحا البيضاء .

— لقد حدثت أمور كثيرة منذ غادرنا ، ولكن الوضع في جوهره لم يتغير . فالملك عبد الله قتل كما تعلم ، وابنه الملك دلال نزل عن العرش ونولاه الملك الشاب حسين . ولذان فلسطين المحتلة لم نزل على حالها بمعسوبة محتلة . وفي كل عام تحلّفو القضية الفلسطينية على السطح في جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة بجمعيتها العامة ، وينتهي الأمر دائماً بتأكيد حق اللاجئين في التوطين ، ثم يقف الأمر عند هذا الحد . فسلالات اللاجئين يستردون وطنهم ، ولا يبدو أن هناك أملاً في أن ترد إليهم هذه المنظمة وطنهم . فلن يحدث شيء حاسم في قضية فلسطين إلا إذا صنع الفلسطينيون أنفسهم هذا الشيء . هذه حقيقة نعرفها جميعاً . ولكن المشكلة كلها تنحصر في إيجاد الوسيلة المؤدية إلى ذلك . وما أكثر ما يقوله من يسمون أنفسهم بالعقلاء من أن العودة إلى الوطن حل غير عملي ، وإنما يجب أن تكون « واقعيين » عمليين « فنقبل الوضع الراهن ، أي نتقبل تحول ثلثي فلسطين العربية إلى دولة لقطلة اسمها

إسرائيل! .. فنوافق بذلك على ضياع شخصيتنا القومية ،  
ونتحول من أمة متميزة مستقلة ، إلى جنود من الأفراد مشتتين  
في بلدان تستضيفنا . فالتنازل عن الوطن معناه ضياع القومية  
ولا مرء . فعمل في وسعنا أن ننسى إلى الأبد أننا فلسطينيون ،  
ونعفى في الحياة المشردة بقلوب مطمئنة ، حتى ينسى الناس  
تضيقنا الوطنية بعد أن نسيناها نحن ، ونتحول من شعب  
مظلوم إلى شعب منسى !

وكان صوته وهو يتكلم يقلع مرارة .. ثم اعتدل في جلسته  
واكفبر وجهه من فرط الغضب وهو يستطرد ، قائلا :

— وهناك آخرون ينادون بأن دولة إسرائيل إنما هي مرحلة  
عابرة من مراحل التاريخ ، وأن هذا الاحتلال الناصب سيجلب  
عن تلسعطين بصورة طبيعية ، كما انجاب عنها ساساطان  
الإمبراطورية البريطانية . واصحاب هذا الراى من المؤمنين  
بالانقذرة التاريخية إلى الأمور . ويطلب لهم أن يقولوا لك ،  
كيف انتهت امبراطورية الفرس بعد ازدهسار ، وكيف انتهت  
امبراطورية الرومان بعد رسوخ وانتشار ، وكيف انتهت  
وريثتها الإمبراطورية البريطانية وكانت الشمس لا تغرب عن  
أرجائها في ليل أو نهار ؟ وكيف قام الرايخ الثالث وأوشك  
أن يسيطر حتر على العالم أجمع ثم لم يلبث أن انهسار ..  
فما علينا للتخلص من إسرائيل سوى طول الانتظار ! وهو كلام  
لا يقوله إلا من يملكون كل شيء ، فهم في أوطانهم مستقرون ،  
وفي ديارهم آمنون موفورون ، وما عليهم بعد ذلك أن يطالبوا  
المشردين المحرومين المقصوبين بالفسير والأناة إلى أن تنقضى



استلقى « وليد حسين » على بطنه وراح يتحدث حديثا  
طويلا إلى « انطون » الذى جلس مستندا ظهره الى صخرة ..

الحياة ، ولا خسارة على الفاسحين « ولا كسب للتصويحين وإثبات الكسب في الحقيقة لأولئك الذين من مصطلحتهم استقرار الأمور وعدم نشوب القلاقل ، ولو دفاعا عن حق ، أو دفاعا لعدوان على الحياة . وأحسب أنك التقيت بالكثيرين من طراز أولئك الناس أثناء إقامتك الطويلة في إنجلترا .

— نعم . وكثيرا ما ضاقت انفاسي بهم !

— هذا حالك وانت مقيم في النعمة والعافية ، بين أهمل أمك في تلك البلاد البعيدة ، فما بالك بالذين يعيشون في الخيام البالية ولا مورد لحياتهم إلا ما تجود به عليهم أكف المتصدقين تحت اسم « هيئة إغاثة اللاجئين » ، وإنه لفتنة لا يسمن ولا يقنى من جوع !

وسكت ولید قليلا « ثم أردف :

— إن لي صديقا يعمل في معهد المكفوفين الذي ستمعمل به انت ، واسمه « طالب حمادى » . تعرفت به منذ سنتين . وكان يومئذ يعيش في معسكر اللاجئين الكبير بالقرب من ( بيت لحم ) . وكنت قد ذهبت لزيارة ذلك المعسكر في صحبة عمى مدير البنك . وطفنا بأرجائه ومعنا المشرف ومنذوب لجنة الإغاثة . وكان طالب حمادى أحد الذين تحدثنا إليهم لاستطلاع الأحوال . فأنفاد عمى شخصا ذكيا متوقد الذهن . ثابت الجنان ، خلق اللسان . فاعجب به ، وسأله . أفلا يحب أن يلتحق بعمل خارج نطاق المعسكر فيتمسنى له أن يعيش بعيدا عنه في ظروف أفضل من هذه الظروف ؟ وكانت سن طالب وتشد ثمانى عشرة سنة ، فأجاب لأول وهلة بالرغض «

لأن قبوله سيقرب عليه إتصاص مخصصات المعونة لأسرته ، بيد أن أباه انتهره وقال إن من الغباء إنلات مثل هذه الفرصة . وهكذا حصل عمى لطالب على ذلك العمل في معهد مسنر شابلى . وفي العام الماضى تزوج من إحدى فتيات المعسكر . وهى لم تزل مقيمة به . مع أنه يقيم مثل سائر مدرسى المعهد في المستعمرة الملحقة بالمعهد نفسه ، لأنها نضلت البقاء مع أسرته .

— وكيف يستقيم هذا الزواج ؟

— إنه ينتهز أى فترة فراغ مدتها ساعة أو ساعتان لينطلق إلى المعسكر على متن دراجته كى يرى زوجته ويحاسبها قليلا . وقد صارحنى بان المعيشة في المعهد تتوفر لها وسائل الراحة إلى أقصى حد . وأن الغذاء في نظره على الأقل ممتاز . وأن الجميع هناك يعاملونه أكرام معاملة . ومع هذا فهو أم يرى يشعر باستمرار أن بينه الحقيقي في ذلك المعسكر وبين أبناء عشيرته . وهذا هو ما يسمى الآن بمقده الالتجاء . أو العقوبة الخاصة باللاجئين . وزوجته تنتمى إلى هذه العقوبة أيضا . ولذا ترغب أن تستقل بمعيشتها مع زوجها في مسكن خاص ببيت لحم . وكلنا هنا تقريبا نلتقى إلى هذه العقوبة . نحن من لا يعيشون منا في المعسكرات ، مثلنا أنا الذى أعيش في بيت عمى مدير البنك . حين أكون هنا — أو في مساكن الجامعة ببروت أثناء السنة الدراسية . وحتى أنت — وقد عشت عيشة مختلفة جدا عن معيشة المعسكرات في إنجلترا . بين

والدتك وجديك - إلا أنك كنت تواقا طوال الوقت للعودة إلى هذا البلد ..

- إن هذه الفكرة لم تفارق ذهني لحظة واحدة :

- وكذلك الحال بالنسبة لى وأنا فى بيروت - مع أننى سعيد جدا بالفرصة التى أتحت لى كى ألتقى العلم هناك ، ولكن بيروت ليست وطنى ، ولا أشعر بقوميتى كما أشعر بها هنا ، فى الأرض التى كانت تسمى فلسطين ، ويجب أن تسمى بهذا الاسم على الدوام .

- ولكن ماذا عن صاحبك « طالب حمادى » ؟

- إنه يتمتع بميزة بارزة بالنسبة لمشروعنا ، فهو من بئر سبع ، وهو متلهف أشد التلهف على العودة إليها ، لأن له أحبا لم يزل مقيما هناك ، وقد استطاعت إقتناعه بوجوب تكوين نواة للمقاومة الشعبية هناك ، داخل الأرض المحتلة نفسها . وإلى أخيه هذا سنتجه عند تسللنا ، وسيكون « طالب » معنا .

وتسارعت دقات قلب أنطون . فطريق بئر سبع أم تكن قبل ذلك سوى حلم من الأحلام ، أقرب إلى الرمز منها إلى الواقع « ولكن ها هو الحلم يتحقق فى صورة مادية ، على حين غرة !

ونظر أنطون من فوق قمة جبل التجربة ، كأنه يريد أن يرى تلك الطريق الملتوية التى تبدأ من الخليل وتعرج فى

ممرها عبر حدود التقسيم ، وإن هى إلا بضعة أميال حتى تكون قد أفقت إلى بئر سبع . انهما على هذه الطريق سيدرجان معا . هذا هو الواقع الذى بات ملموسا لأنطون ، كواقع وجوده الآن على قمة جبل التجربة مع وليد ، وكواقع هبوطها عنه بعد قليل ليستردا دراجتيهما من الدير فى منتصف السفح .

وسال أنطون وليدا وهو يجتهد أن يبدو غير مضطرب النفس بما جاش فى صدره من انفعالات عنيفة : « وهل يعرف طالب أرض تلك المنطقة جيدا ؟ » .

- خير معرفة . فقد كانت لأبيه أرض زراعية فى الوادى من وراء [ الظهيرية ] ، وله فى القرية أبناء عمومة ، مما سيساعده على الوصول إلى تلك المنطقة .

- وهل لم يزل الوصول إلى هناك محفوفا بالصعاب ؟

- الغرباء عن المنطقة لابد لهم من ترخيص بالمرور ، وسيكون فى وسعنا أن نحصل على الترخيص بسهولة عن طريق عمى . أما طالب فقد يجازف بركوب السيارة العادية إن حضر أحد أبناء عمومته يتسنى له إثبات شخصيته عند اللزوم لدى الشرطة « ذلك أن رجال الشرطة يقومون أحيانا بالفتيش على الركاب ومراجعة هوياتهم - ( بطاقاتهم الشخصية ) - ليتأكدوا من عدم وجود غريباء بينهم » فإن وجدوا بينهم غريبا كان عليه أن يثبت قرابته لأحد من سكان ( الظهيرية ) ، ولذا يستحسن أن يكون معه أحد أقارب أو أصدقاء شخصيا

كثيرا ما ذهبت مع عمى كلما حضر إلى خليل . وعلى كل حال لم يعد الأمر عسيرا كما كان في سنة ١٩٤٩ ، ومع هذا ستكون أنت بحاجة إلى ترخيص .

— وما هي خطتك ؟

— خطتي ان اتخى العطلة كلها هناك في فصل الصيف القادم ، لكي اتعرف على أرض المنطقة تعرفا تاما . سأقضي النهار بطوله في الحقول مع عمى ومع سعيد ومع الجد ، وفي كل يوم سأوغل إلى مسافة أبعد ، وأنا أعمل في الزراعة ، من غير ان أتجاوز خط الهدنة . وسيقوم طالب برسم خريطة تفصيلية للمنطقة .

— وكم من الوقت ستقضيه في بئر سبع ؟

— ربما قضيت هناك بضعة أسابيع ، أما أنت وطالب فلن تقضيا هناك سوى بضعة أيام . لأن العطلة الصيفية في سبوتكم شبه معدومة .

— سيكون عليك إذن ان تعود وحدك !

— لن يكون هذا عسيرا ، لأنى في هذه الحالة لن تكون مشغول الذهن بمصر من عمى . هل تشعر أنت بتوتر أعصابك في مثل هذا الموقف يا أنطون ؟

— أجل . إن المسألة برمتها تبدو لى الآن هائلة ، وقد أوشكتنا على تنفيذها . وليس معنى هذا طبعاً أنى لا أريد ان

أتوم بالمهمة ، فقد قضيت السنوات الأربع في إنجلترا وهي شغلى الشاغل !

— إن وصولنا إلى بئر سبع سيكون له أكبر الأثر في الفلسطينيين هناك ، ولا سيما حين يرون شاباً مثلك جاء إليهم خصيصاً من وراء البحار ، وثق أن من بين المسنين هناك من يذكرون أباك ومواقفه الوطنية .

— هل من المعروف عدد الفلسطينيين في الأرض المحتلة ؟

— نحو خمسة وسبعين ألف فلسطيني يعيشون تحت نير إسرائيل ، ويحاولونهم على أساس انهم « مواطنون من الدرجة الثانية » . وليست بئر سبع كما تعلم سوى البداية . مجرد نواة للمقاومة السرية التي يجب ان تنشأ في كل قرية وبلدية في الأراضي المحتلة لم يزل بها عرب . وقد أثرنا الابتداء ببئر سبع لأنها وطنى الأصلى وموطن طالب . ولابد لنا مستقبلاً من وحدات من الفدائيين مدربين أحسن تدريب ، على طول الحدود .

— الحكومات وحدها هي التي تستطيع هذا !

— واى حكومة هي التي أعدت جيش أيرلندا الوطنى السرى الذى كلفه الإنجليز بعد تقسيم أيرلندا ؟ ومن الذى أعد جيش المقاومة الفرنسى عند تقسيم فرنسا إلى محتلّة وغير محتلّة بعد الغزو النازى ؟

تم نذر وليد في ساعته وقال : يحسن ان نعود الآن ، فقد وعدناهم في الدبر ان نعود في الساعة الرابعة » .



- ٣ -

كتب أنطون عددا من الرسائل إلى أهله في إنجلترا ، وإلى صديقه مستر جونز ، وأرسل بطاقات ملونة إلى لندنلى . وكان معظم حديثه إلى والدته عن ثريا : « لقد أعجبت ثريا كثيرا بدار السلام ، وقد طفت بها أرجاءها وشرفاتها . ووقفنا وقفة طويلة في الشرفة العلوية التى تطل عبر البستان على جبل التجربة . واحسست وهى واقفة هناك معى ان التاريخ يعيد نفسه ، كما حدث فى أول مرة وقفت أنت فيها هناك مع أبى . . ولم تسمح لى الفرصة كى أراها بعد ذلك لأنها غادرت (أريحا) فى الصباح إلى ( رام الله ) لقضاء عيد الميلاد مع ذويها هناك ، وفى نهاية الشهر ستكون قد غادرت رام الله عائدة إلى بيروت لاستئناف دراستها . كم وددت لو أنها لم ترحل !

» . . وقد ذهبت لزيارة مستر شابللى فى يوم وصولى بعد الظهر ، فى صحبة زوج عمى خليل الذى كان يتودد للسيارة ، وذهب معنا وليد ، وبذلك سمحت لى الفرصة كى أقدمه إلى أمين الذى يحتفل الآن بشارب أسود كك . ذل وليد ، ويعلم الأشغال اليدوية للكفوفين فى المعهد . وقد طاف بى « أمين » أرجاء المعهد وملحقاته ، ومستعمرة المساكن التى يقيم بها العاملون ، وأرانى الكوخ الذى ساشركه فيه عندما اتسلم العمل . وكل شئ فى داخل هذا الكوخ الصغير أبيض ، أجرد ، والأرض الحجرية عارية والأثاث بسيط جدا وفى أضيق الحدود الممكنة . فكل شئ هنا هو الحد الأدنى للوازم

الحياة الضرورية ، من غير نظر إلى وسائل الراحة أو الترف بطبيعة الحال !

« وليس بيت مستر شابللى أحسن حالا من بيوت المعلمين . وكل ما يتميز به هو تلك الكمية الضخمة من الكتب التى يملكها ، وهو رجل طويل القامة ، نحيلها ، أشيب الشعر ، رقيق الجانب غاية الرقة ، يفيض ذهابة وعذفا وحنانا على تلاميذه ومروميه . وأمين يقول إن الجميع هنا يحبونه لأنه فى الواقع إنسان منكر لذاته كل الإنكار . وهو شديد الإعجاب بالمهاجرين غاندى . قال لى أمين ذات مرة إن هذا الهندوسى أشد مسيحية من الكثرة الغالبة ممن ينسحبون إلى المسيح بالاسم والعنوان . بل إنه يعتبر المهاجرين غاندى أعظم مهبط للمسيحية فى المصور الحديثة .

« والمعهد فى الحقيقة أقرب إلى الجالية التى تسيش على أسلوب تعاونى مشترك منه إلى المدرسة . بل ما أشبهه بمستعمرة من حيث انه يتألف من مجموعة من الأكواخ للأقامة ، ومزرعة صغيرة « وحديقة لإنتاج الخضر التى تباع فى سوق البلدة ، وعدد من الورش ، ومصنع صغير للنسيج .

« ومستر شابللى لم يتزوج . ويزعم أمين ان ذلك اثر من آثار إعجابه بفلسفة غاندى . وفى المستعمرة أيضا سيدة إنجليزية هى الآنسة « ريس » ، وتقوم بمهمة مدبرة البيت والأم لجميع من فى المستعمرة ، وهى التى تعنى بتياب التلاميذ المكتوفين ، وتشرف على أعمال الفسيل التى تقوم بها غابات من اللاجئين المقيمت فى المعسكر القديم

والآنسة ريس في نحو الستين من عمرها نيفيا اعتقد . وقد حسبتهما لأول وهلة حادة الطبع ، ولكن امينا قال لي إنها طيبة القلب ، وأن ما حسبته حدة طبع إنما هو في الواقع صراحة واستقامة في التعبير ، وإنها ذات عقل عظمى . وهذا الجانب من الخير أن يتوفر فيها ، لأن مسنر شابلي رجل حالم ولا يصلح لمعالجة المسائل العملية . وقد أخبرتنى الآنسة ريس أنها كانت تعمل تحت إمرة جدى في باغا ، وأنها ترسل إليه بتحياتها .

« والتلاميذ المكثفون منهم من يقيمون في المعهد بالمقسم الداخلى » وسنهم تلاميذ بالتسم الخارجى يحضرون يوميا سدا عدا يوم الأحد ، وتقولى الآنسة ريس إحضارهم في عربة المدرسة . ومسنر شابلى هو الذى يلقى دروس اللغة الإنجليزية عليهم ، وساتولى مساعدته في هذه الدروس على أمل أن أتولاها نيابة عنه بصفة شاملة فيما بعد .

\*\*\*

والحقيقة أن ماريان لم تسترح لما ورد في الخطاب بشأن الفتاة ، وإن كانت تعرف عائلة « سلبا » معرفة يسيرة . وهى على يقين من أن ثريا فتاة مهيبة حسنة التربية . يمكن أن تنجح في « كشف البؤسة » أمام نظرات « الزبيث » الفاحصة ، وبمقاييسها الاجتماعية الصارمة . ولكنها كانت تريد لأنطون ألا ينشئ علاقة تربطه ببلاد العربية ، وتحمل إقامته هناك تمتد مستقبلا إلى أكثر من هذه السنة التدريبية .

ثم ماذا يكون الحال ومن المفروض في ختام هذه السنة أن

يعود أنطون إلى لندن ليدرس في مدرسة العلوم الاجتماعية والاقتصادية مدى سنتين على الأقل ، في الوقت الذى لابد فيه للفتاة نفسها من قضاء مدة أطول من هذه في اتمام دراستها الطبية بجامعة بيروت الأمريكية . فالصورة العامة لأطراف هذه العلاقة ، لا تبشر إلا بأنواع من الفرقة والقلق والحزن ..

وناقشت ماريان الأمر مع أبيها ، ولكن الرجل المعجوز الحرجب رفض أن يجاربا في هذا القلق ، وقال أنها تزعج نفسها بأمور لم تزل في طى الغيب : « دعى الفتى يستمتع بهذه العلاقة الحائلة خلال السنة التى يقضيها هناك ، ولا تنسى أن مثل هذه العلاقة ستشغل ذهنه عن كل هراء من تدسل التسلل وراء خطوط الهدنة مع صاحبه وليد . حتى إذا عاد إلى لندن ، استغرقته حياة جديدة في الجامعة ، وتنتهى هذه العلاقة نهائيا الطبيعية . عن طريق الذبول والتلاشى . فأكبر الظن أن عودته إلى إنجلترا ستصل أسبابه بأسباب الحياة الإنجليزية ، فيتزوج في النهاية فتاة إنجليزية . ومتى تم هذا فهو لن يفكر في العودة إلى فلسطين » .

أخشى يا أبى أن تكون متفائلا أكثر مما ينبغي . فأنطون بن أبيه أكثر مما تتصور . وقد ظلت إنجلترا بالنسبة له « أرض المنفى » ، كما كانت حرباً أن تكون بالنسبة لمطرس لو أنه كان هنا معنا تلك السنوات . فالعودة إلى فلسطين في إحساس أنطون هى العودة إلى الوطن . وميله إلى هذه الفتاة ثريا راجع إلى حد كبير إلى أنها تلتحق بمشروعها الحفظية طنبسة

بالاده وشمسها . فارتباطه بها هو ارتباط الجذر بالقربة التي ينمو فيها ويتاصل . ولذا اعتقد انها ستجذبه إلى الشرق بحيث يعسر جدا انزاعه من هناك ليعود إلى احضاننا .

وهز روبرت ملبي كتفيه وقال بهدوء : « ليكن ما يكون . فالغنى ينبغي ان يحقق ذاته على الطريقة التي تستقر بها نفسه ويرتاح إليها تفكيره » .

— هذا شيء لا أمارى فيه . وإن كان يسبب لى الما شديدا . ولكننا لا نضوغ اولادنا على ما نهوى . وسأكتب إليه اليوم وأبعث إليه ببركتى . .

— ولا تنسى بركتى أنا أيضا . « اعطنا اليوم . خبزنا كفافنا . » « يوما بيوم . وغدا يوم جديد يفرض نفسه ، ولا حيلة لنا في تحويله أو التنبؤ به . هذه فلسفة لم تزل صالحة لتسيير أمور البشر في كل حين .

\*\*\*

ولم يكتب انطون إلى والدته شيئا عن تفاصيل حياته بعد ذلك ، وإن كان قد وصف لها احتفالات عيد الميلاد في دار السلام ، وفي رام الله . ولم يذكر لها كيف حرص على لقاء شريا قبل عودتها إلى بيروت . وكيف كانت يداهما تتشابكان خلسة في الحين بعد الحين ، كلما أمنا أعين الرقباء — أو على الأصح الرقيبيات من بنات عمته — وأن ثريا لم تكن تجذب يدها إلا بعد برهة طويلة وهى ترمقه بابتسامة وضيئة .

والحقيقة أن بذور التلق العاطفى أخذت تنمو في نفسه بسرعة بعد اعياد الميلاد ورحيل ثريا . وكثيرا ما كان يختلط عليه الأمر وهو يحلم ، فىرى روزا بين ذراعيه في قاعة السنما المظلمة . وقد التفتت شفتيه في شفتيها كما كانت تفعل ، فيستيقظ من نومه مرتجفا وتفيض نفسه بالأسى والشجن ، ثم يتضح له بعد قليل أن ذلك الأسى ليس حنينا إلى روزا بالذات ، وأن صورتها في الحلم لم تحدث له إلا اضطرابا جسديا عضويا ، أما حنينه العاطفى فالى الفتاة المقيمة في بيروت !

وكان يؤلمه أن عطلة عيد الفصح لن تحل إلا بعد وقت طويل . ولا بد له من الصبر . ولكنه صبر يزيد عادافته الوليدة اشتعالا . .

## - ٤ -

شعر انطون لأول وهلة ان « طالب جهادى » لا يستحقه ثقته ، برغم النزكية الحارة التى أضفاها عليه صديقه وليد ، فهو ينظر نظرة تشكك إلى الغباء السكسونية التى تسرى فى عروقه مختلطة بالدماء العربية . ولذا لم يكن راغبا فى اشراكه معها فى عملية بئر سبع . . . يضاف إلى هذا أن دالبا من أسرة فقيرة أشد الفقر « وكاهله مثل أشد الاثقال بمسئوليته العائلية . وقد علمته مرارة التجربة فى معسكر اللاجئين الا يتق بالطبقة الفنية من الفلاسطينيين ، لأن الظروف لم تقس عليهم إلى الحد الذى يتضورون فيه جوعا أو يعيشون على فتات الصدقة كما يعيش ذووه مع الوقت من نظرائهم فى تلك الخيام . وقد زادت هذه المرارة رسوبا فى نفسه بعد أن أودى سوء التغذية وبرد الشتاء وضالة الكساء بحياة ابنه - على أثر التهاب رئوى فى شانى شتاء قضته الأسرة فى ذلك المعسكر الرهيب - وهذه النار المتأججة فى نفسه على التى جعلته شديد التحمس لفكرة التسلل إلى ( بئر سبع ) عندما غلخته فيها وليد . فهذه الفكرة هى المنقش الطبيعى الذى كانت تحتاج إليه نفسه الساخطة !

و « طالب جهادى » شاب طويل القامة ، عريض الكتفين ، وسيم الحيا ، لولا أنه دائم العبوس ، ضيق الصدر ، لا يميل للمجاملة . وقبلها رآه أحد باسم الثغر منبسط النفس كسائر الناس . وليث متحفظا جدا فى علاقته بزميله الجديد انطون .

وكان أول ما خطر لأنطون فى تعليل ذلك ، أنه يشعر بالغيرة منه لأنه اقتحم عليه استثنائه بصديقه وليد . ثم بدأت الحتفة تتكشف له رويدا رويدا . فلم يحاول بعدها أن يكتسب صداقته ، واكتفى بصداقة صاحبه القديم أمين .

و (أمين) - على عكس «طالب» - دبت متواضع سهل القياد ، راض نفسه منذ زمن طويل على تقبل عاهته بغير تذمر ، وهو قياض النفس بالشكران والمودة على المعونة التى أسبغها عليه منذ صباه الباكر والد انطون . أما انطون نفسه فهو أحب إنسان فى الدنيا إليه ، وقد ظلت راسخة فى ذاكرته لسه يد انطون وهو قابض على يده طوال تلك المسيرة المشؤومة من اللد إلى (رام الله) تحت شمس الصيف المحرقة فى الربة .

ولن ينسى (أمين) - ما عاش - اصرار انطون على الاحتفاظ به إلى جواره فى سيارة الأسرة عندما أقبل عمه فريد لاسطحابه . ثم اصراره بعد ذلك على استبقائه معه فى بيت ال داود ، وقد جدد هذا الاحساس لديه أن انطونا أصر عندهما شريكه كوخه أن ينقل سريريه إلى حجرة نوم أمين نفسها ليتسنى لهما السمر الطويل بعد ذلك الانقطاع !

ولكن انطونا لم يخبر أمينا بما دبره مع وليد ومطالب ، وإن كان قد ساله عرضا عن رأيه فى إنشاء طابور خامس داخل الأرض المحتلة ، تهيدا لقيام حركة مقاومة مسلحة على نحو ما صنعه الفرنسيون اثناء الحرب العالمية الثانية بعد الغزو النازى . فآذا بأمين لا يدرى شيئا عن الطابور الخامس أو حركة المقاومة الفرنسية . ولكن عرفنا ذلك كله



ومهما يكن من شيء فقد ظل انطون وقتنا طويلا ساهر العين والذهن بعد أن استسلم أمين للنعاس ..

من مدرسه السابق مستر جونز ، فشرحه لأمين بحماسة اثارت اهتمام الشاب الاعمى ، بيد أنه لم يستطع أن يتصور نجاح المقاومة الفرنسية إلا على أساس أن الحلفاء كانوا يبدونهم بالمساعدات والسلاح بطريقة أو بأخرى . ولكن هل هذه هى الحال بالنسبة لحركة المقاومة العربية داخل إسرائيل ؟ .. أنه يفهم بسهولة أن يتسلل العرب الفلسطينيون وراء خطوط الهدنة لزيارة ذويهم وديارهم خلسة ثم يعودون بعد إطفاء غلة أشواقهم إلى مرابع طفولتهم ومرتاع مسباهم . فهذه فى تصوّره عملية عاطفية عائلية ولا يمكن أن تكون حركة سياسية عسكرية .. وقد قال أمين رأيه هذا بصراحة . وهو رأى أمله عليه ظروف نشأته وعاهته التى جعلته « مستطيعا بغيره » ، « لا يتصور قيام الإنسان بأعمال خطيرة مستقلا بنفسه ، غير مستفيد العون من أحد .

ومهما يكن من شيء فقد ظل انطون وقتنا طويلا ساهر العين والذهن بعد أن استسلم أمين للنعاس . وراح يقبب الفكرة كلها فى ذهنه . وخدّر له أن وليدا وطالبا ربما كانا مدفعين إلى هذه العملية بحافز انفعالى يريد أن يجد متنفسا عمليا للسخط والرغبة فى المقاومة ، من غير نظر إلى جدوى تلك المقاومة . فهى أشبه بالصرخة التى يطلقها المكروب ولو كان يعلم أنه ما من سميع ولا مجيب !

وفكر فى امر نفسه شخصا ، وفى الدافع الذى يحفزه على المضى فى إنفاذ تلك الخطة ، وتراءى له بعد أمان التفكير أنه إنما يستجيب فى ذلك لصداقته القديمة بوليد ، ورغبة منه

في اثبات جدارته بتلك الصداقة . ولنرط ما « عيش » تلك الفكرة ، استولت عليه بحكم الالفة ، بصرف النظر عن مبرراتها الذهنية . . . ولكن حاله اليوم غير حاله بالأمس . ولئن كانت فكرة التسلسل هي منزعه العاطفى الأوحد يوما ما ، قلديه اليوم منزوع عاطفى آخر يزداد يوما بعد يوم هيمنة عليه « وهذا المنزع العاطفى يتمثل في « ثريا سبابا » . . . وما أشد المفارقة بين ذلك الحب الذى يكنه لثريا ، وما كان يكتوى به سابقا من الشوق إلى روزا . نشوقه إلى روزا هو الشوق إلى العناق الحار والمداعبات المثيرة ودفع الانوثة الدافقة ، أما شوقه إلى ثريا فلا يتمثل له إلا في الجلوس إليها ، والنظر إلى عينيها ، والتحدث معها . ولكن هذا الشوق على خلوه من سحر الشهوة ليس أقل سيطرة عليه من شوقه إلى روزا يوم كانت علاقتهما في ابانها ، إن لم يكن أشد ، لأن هذا الشوق تابع من وجدانه لا من غدده السماء ، ومن عقله وشخصيته كلها لا من احساس المراهقة الرعناء .

ولكم كان يحلم أحلام البقلة فراها وقد طارت من سمرق إلى بيت لحم لتقضى معه يوما في النزهة ، حيث يجلسان في ظل شجرة تين عجوز ويرسلان الطرف معا عبر المروج الفيحاء « حيث ترعى الحملان البيضاء أعشابا مزدانة بالسوسن !

وسأله مستر شابلى ذات يوم عن حاله ، وهل يشعر في المعهد بالإناس والاستقرار النفسى ، وألقى أنطون نفسه

بیتسم ويقول إنه على خير ما يرام هنا ، مثلما كان يتسم وهو في المدرسة بلندن متظاهرا بالتناغم والسعادة ، وقلبه في واد آخر . . . إن العميد على رفته البالغة لم يشعره بالالفة العقلية ، ولكنه وجد تلك الالفة الصريحة مع الاتسة « ريس » التى شعر بعد انقضاء أسبوعين على الأكثر أنها تميل إليه وتأنفه ، ويكثرا ما كانت تسرى عنه بعض وحشته بدعوته للركوب معها إلى القدس ، كلما ذهبت إلى هناك اشراء مستلزمات المستعمرة من الأطعمة وما إليها ، وكان هو خالى البرنامج من الدروس التى يلقيها في اللغة الإنجليزية والقراءة بطريقة « برايل » . . . فكان يمتدئ يرحب دائما بتلك الرحلات التى تدخل التغيير على نهط حياته الرتيب في ذلك المكان ، ويجد فيها فرسا طيبة للانصراف عن تفكيره المتصل في ثريا سبابا .

وكثيرا ما نازعته نفسه أن يكتب إلى ثريا جانبها من الخواطر التى تدور بذهنه في شأنها ، ويبثها ، بعض أحلامه وأمانيه واشواقه . ولكنه كان دائما يهزق ما يكتبه إليها ولا يجسر على إيداعه صندوق البريد الجوى !

\*\*\*

وأخذ موعد عطلة عيد الفصح يقترب رويدا رويدا ، ومعنى ذلك عودة ثريا إلى رام الله . ومعناه في الوقت نفسه عودة وليد أيضا ! ووليد مصر على أن الوقت غير مناسب على الإطلاق لإنشاء علاقة حب ، ووجود ثريا في حد ذاته أمام ناظرى أنطون برهان من أقوى ما يمكن على لزوم تلك العلاقة !

وشعر انطون بحاجة القصوى للانضاء بحيرته إلى إنسان ما ، بيد انه ألقي من المستحيل عليه أن يناقش عاطفته نحو ثريا مع صديقه المكفوف أمين ، وليس له صديق سواه للأسف يسعه أن يفتح له قلبه في هذه الفترة . . ونجاة ، ذات صباح مشرق من شهر أبريل « رأى ثريا في مدينة القدس ، تدس رأسها داخل نافذة السيارة التي جلس هو فيها » في المقعد المجاور لاسائق « يتنقل أوبة الأنسة رئيس من مكتب البريد ، وعلى محياها ابتسامتها المشرقة !

ووثب انطون من السيارة وراح يسألها بعد عبارات الترحيب الأولى عما أتى بها إلى القدس قبل بداية عطلة الفصح ، ومتى كان وصولها من بيروت . فأجابته أن عطلات كلية الطب تخطف من سنة إلى أخرى « وأنها حضرت من بيروت منذ ثلاثة أيام . فقال لها في شيء من الاستياء :

— لك هنا ثلاثة أيام ولم تقابل أولا هذه المصادفة التي جاءت على غير انتظار ؟

وكم كانت دهشته حين قالت له أنها فكرت كثيرا في الذهاب إلى بيت لحم لزيارته ، ولكنها لم تستطع تدبير ذلك بسهولة ، وأنها ذهبت مرتين إلى بيت آل داود على أمل أن تراه هناك ، ولكنهم قالوا لها أنه لم يعد يزورهم منذ التحق بالعمل . فقال انطون : « إن وقت فراغي قليل . وليس هناك ما يدعوني للتوجه إلى بيت فيه بنات عمتي الحمقات . ولكن ماذا صننع الآن وقد أوشكت عطلتك على الانتهاء ؟ » .

— إيماننا في الصيف عطلة تمتد ثلاثة أشهر ، وسيكون من السهل علينا في تلك الفترة أن نلتقي .

— لم نزل بيننا وبين الصيف فترة طويلة جدا .

— ليست طويلة إلى هذا الحد .

— في نظري أنا على الأقل !

— في وسعنا أن نقصرها بتبادل الرسائل !

وعفئذ أقبلت الأنسة رئيس من مكتب البريد ، فقام بتقديم ثريا إليها . وكانت الأنسة رئيس تعرف والدها الدكتور سلبا . ولم تلبث ثريا أن استأذنت في الانصراف ، ثم حرصت على استقبال يد انطون في يدها وهي تودعه ، وقالت له بأسمة :

— هذا وعد إذن ؟ ستكتب إلي وأكتب إليك !

— كم كنت متلهفا على هذا الوعد .

وتلاقت عيناها في نظرة طويلة ، ثم انصرفتا . وفي الحريق إلى بيت لحم سألته الأنسة رئيس : « أهى غفائك » .

— أظن هذا . ولكن الفرصة لم تسنح لنا قط للالتقاء على انفراد . ولم أقابلها من قبل إلا في حفلات عيد الميلاد باريحا ، وكانت شرخمة كبيرة من أعضاء الأسرة تحيط بنا على الدوام . ولست أدري كيف يتسنى للشباب هنا أن يتعارفوا معرفة كافية لعقد الخطبة ، ودعى عنك عقد الزواج !

— في مثل هذه الظروف التقى أبواك ، وتضمنى لهما أن يتدبرا أمرهما جيدا !

— لا وجه للمقارنة ، فقد كان أبى صديقا لوالد أمى .

— وهل فى نيتك أن تتزوج هذه الفتاة ؟

— إن تفكرى لم يصل إلى هذا المدى بعد . وكل مرادى أن أجد فرصة للانفراد بها أحيانا كى يعرف كل منا صاحبه ! ولو كنا فى إنجلترا لوسعنى أن أخرج معها للزهة علانية وإن اصحبها إلى السينما وأزورها فى بيتها وأدعوها لزيارتى فى بيتى . .

— وشئ من هذا يحدث الآن هنا بالفعل بين الشباب المتعاطف على الطريقة الأوروبية . ولكنك عجول أيها الشاب ! ثم أنت كسول أيضا ولا تبذل جهدا كافيا ، فالسعادة كالتأثير ٧ بد أن تستدرجه إلى شبائك وإلا فلا صيد ! والفتيات فى هذا البلد لا يستغلن من السماء على الرجال كما تسقط الثمرة عند تمام نضجها على الجاسين فى ظلال الأشجار . بل لا بد من جنى تلك الثمار بعناية وحذر فى أوانها المناسب . وبتى نم جنيهن ، فترقررن فى السلال . وهى مزية لا يمكن أن تقال بحديق من كثيرات من فتياتك الإنجليزيات !

واستسلم أنطون للصمت والتفكير ، ثم سألها نجاة : « خبرينى يا آنسة ريس : ماذا تفعلين لو أن لديك رغبتين متعارضتين تماما ، وكل منهما عزيز عليك » إلى أيهما تسعين ؟ » .


— أهذه هى مشكلتك ؟ أهذا التعارض هو الذى يعصك عن السعى للحصول على فتاتك ؟ هل هناك عاطفة أخرى تتنازعك ؟

— تقريبا .

— فى هذه الحالة إما أن تتعد مكتوف اليدين هكذا ، تحفظ الاثنين معا ، أو تلتزم الحزم مع نفسك وتقرر بصغة قاطعة أيهما ألزم لك ، ثم تجمع همك للفوز بها !

\*\*\*

أما وليد فلم يقابله أنطون فى عطلة عيد النصح إلا مرة واحدة . وباتفاق سابق على اللقاء فى رام الله . إذ انصهر أنطون بليفونيا فى المعهد يوم وصوله ، والتقى فى اليوم التالى . وعند وصول أنطون إلى رام الله — معولا على قضاء نصف اليوم كله فى صحبة وليد — اتضح له أن وليدا لا يستطيع أن يمنحه من وقته سوى ساعة واحدة ! عقد اتفاق مع شخص ما على أن يبقه فى سيارته بعد ساعة إلى الخليل ، حيث يبيت ليلته ، ويرحل فى الفداة بالسيارة العامة لزيارة عمه منى فى ( الظهيرية ) التى سيقضى بها بقية الأسبوع . ولذا سوف لا يتسع وقته هذه المرة للقاء « طالب حمادى » ، ولكن هذا اللقاء غير ضرورى . وسوف يجتمع شمل ثلاثتهم فى الصيف ليرسموا تفاصيل خطة التسلال إلى بئر سبع بأتم عناية .

أما فى هذه المرة فهو ذاهب إلى الظهيرية كجزء من خطته البعيدة المدى التى شرع فى تنفيذها منذ سنوات ، وهى التعرّف بأهالى المنطقة ، والارتباط بأوامر  .



الأردني الذي يراقب الحدود هناك ، توطئة للمستقبل ، لأنه  
قدّر في ذهنه أن الخطر من جانبهم سيكون أشد من خطر  
الحراس الإسرائيليين ، لشدة حرص الأردن على إيقاف التسلسل  
لما يسببه من اضطراب ومتاعب . وكان تعليق وليد على  
هذا : « أنهم على صواب من وجهة نظرهم بطبيعة الحال ،  
ولكننا نحن أيضا على صواب من وجهة نظرنا ، لأن من حقنا  
كلاجئين أن نعود إلى وطننا وديارنا . . . إنه حق طبيعي  
و مقدس » .

وكان لقاء أنطون ووليد في مقهى صغير في وسط البلدة ،  
ثم خرجا للسير معا تحت ظلال الأشجار وهما يتجاذبان  
الحديث . وسأل وليد صاحبه : « كيف حالك الآن مع  
طالب ؟ » .

— لا علاقة لى به تقريبا . فهو لا يكلمنى إلا للضرورة  
القصوى . وما أقل فرص تلك الضرورة في الواقع . ولا أدرى  
سبب شعوره العدائى نحوى ، أمى الغيرة ؟

— إنه لا يثق بالجانب الإنجليزى في تكوينك . ولم يكن  
ينبغى لى في الواقع أن أصرّح بأن والدك إنجليزية .

— ولكن أباه يشعر نحو فلسطين بشعور العرب أنفسهم .

— من غير الممكن أن تحبل طالبا على تصديق ذلك !

— كم أتنبئ لو أنه لم يشترك معنا في مشروعنا .

— ولكننا بحاجة إليه . فهو دليانا . وبمرور الزمن سيثيق  
بك متى وجدك جادا في حماسك للفكرة . أخبره على كل  
حال أنك قابلتني وأتفى ذاهب إلى الخليل والظهيرية .

وانفرتا بعد ذلك ، وقد خاهر أنطونا احساس — لا يدري  
مبعثه — بالضيق « وكان شبكة توشك أن تطبق عليه فلا  
تقلته . إن الحسناء بينه وبين صديقه لم يعد خالصا كذى  
قبل !



— ٥ —

وطوال ذلك الربيع كان انطون يحدث نفسه بأن الصيف ات لاريب فيه . وأن وليدا وثريا سيغادران بيروت في منتصف يونية عائدتين إلى رام الله . وكانت ثريا قد كتبت إليه رسالة واحدة ، إلا أنها كانت كافية جدا ، فقد أودعتها كل ما يمكن أن يقال ، وختمتها بقولها : « احتفظ بي في تابك يا عزيزي انطون مثلما احتفظ بك في قلبى ! » . ووقعت رسالتها بتلك الكلمة الجريئة : « حبيبك ثريا » .

.. وفى وسعه الآن ان يعيش مطمئن النفس إلى ان كل شىء على ما يرام . وأن قلقة الذى شاب احلامه وإمانيه العاطفية لم يعد له محل في حياته . فقد أوشك الحلم أن يكون واقعا محسوسا . وقد عول عند قدومها في منتصف يونية على ان يصحبها لزيارة بيت أسرتهما . وأن يطلب إلى أبيها وإلى والدتها أن يباركا خطبتها رسميا . ولئن كانت ثمة صعاب تكثف سبيلهما ، فعلى صعاب ما أهونها أمام الأزم الذى استقر من الجانبين . وكل ما يصبو إليه الآن أن يحل اليوم الذى تتأكد فيه هذه السطور المقروءة بلهسة اليد ولمسة الشفاه !

وذاث يوم ، تكررت مفاجأة اللقاء في القدس في شهر ابريل ، ولكن بصورة أخرى ، عندما رأها ذات يوم تجتاز فناء

المعهد وفى صحبتها رجل لم تزل به آثار الشيب ، خفيف القامة ، يشبهها شيئا شديدا ، فادرك على الفور أنه أبوها . وكان انطون يلتقى درسا في الهواء المطلق تحت شجرة ، عندما رأى الزائرين يقتربان ، فاشتد وجيب قلبه ، وصرف التلاميذ .. ثم تقدم للقاء ثريا والدكتور سابا . وكانت ثريا ترتدى ثوبا أبيض وحذاء أبيض اللون عالى الكعب ، وتندو في أوج جمالها . وصاحت به بعد أن قامت بتقديمه إلى أبيها :

— لا بد ان تعود معنا لتناول الغداء ، لأنى أريد أن أقدمك إلى والدنى وسائر افراد الأسرة .

— لست ادرى هل هذا في المستطاع أم لا ، لأن لدى درسا سالتقه في الثالثة بعد الظهر .

وعندئذ قال الدكتور سابا إن المعهد صديقه ، وأنه سيرجوه ان يمنح التلاميذ عطلة بعد ظهر ذلك اليوم . وبعد قليل كانت سيارة الدكتور سابا تقلهم ، وقد جلس الدكتور إلى جوار السائق ، وجلست ثريا مع انطون في المقعد الخلفى .

وقد تشابكت يداهما خلسة . وقال لها هامسا : « يجب أن نطلب إليهم اليوم الموافقة على إعلان خطبتنا . » فاحمر وجه ثريا وهزت رأسها ، وضغطت على أصابعه ضغطا شديدا . وخيل إلى انطون أنه لن يشعر ما عاشت بذلل السعادة التى غمرته في هذه اللحظة !

أما انطباعاته بعد ذلك فلا تتجاوز احساساته العابرة ببيت أنيق يتوسط حديقة واسعة الأرجاء ، فوق ربوة تشرف على واد عريض . وفي ذلك البيت وجوه باسمه مشرقة ، لأسماء سمعها ولكنه لا يعتقد أن ذاكرته وعت شيئا منها . ولفت نظره منها على الخصوص ، وجه امرأة خيل إليه لأول وهلة أنها شقيقة ثريا الكبرى ، ثم اتضح أنها والدتها ، وقد رحبت به أحر ترحيب ، وأكدت له أن بيتهم بيته منذ الآن .

وقالت ذلك بادية غداء احتفالية خيل إليه أن الطعام فيها كان اكادسا مكدسة . وبعد الغداء انتهزت ثريا أول فرصة مناسبة وتملأت برغبتها في الطواف به بين أحواض الزهور وأشجار الفاكهة في الحديقة ، كي تفرد به هناك « حيث قالت له :

— لقد قلت لأبى إننا راغبان في إعلان الخطبة ، فقال إنه لا يمانع في ذلك إذا كانت أسرتك لا ترى مانعا من إعلانها ، إلا أنه لا يريد أن يتم هذا الإعلان إلا قبيل عودتي إلى بيروت ، وعندئذ يقيم لنا حفلا كبيرا ، يدعو إليه جميع الأقارب والأصهار والأصدقاء ، ويحضره كذلك آل منصور وآل داود ، ويأجذا لو استضافات والدتك القنوم أيضا .

— يا لها من فكرة بديعة . وإن كنت لا أدري بالضبط هل سيكون في مقدورها أن تحضر في ذلك الحين أم لا .

والفيا نفسيهما تحت عريشة من نيات الجهنمية تواربهما عن انتظار من في البيت ، توقفت والتفت إليها بنظرة رجاء . ثم احتواها بين ذراعيه وأطبق بفسه على شففتيها ، ولكن شفتيها لم تنفرجا تحت قبيلته على نحو ما كانت تفعل روزا . وعندها افلتها من بين ذراعيه تنهدت وقالت بانفاس مقطعة .

— هيا بنا نعود إليهم قبل أن يفتقدونا .

— ولكني أريد أن أعرف منك هل تحبينني ؟ . هل ؟

— طبعا . طبعا . أنت تعرف هذا . وقد كتبته إليك !

— فاطلق ضحكة سعادة صافية وتابط ذراعها عاندين .

\*\*\*

هذا كله لم يكشف به أنطون صديقه وليد الذي زاره بعد بضعة أيام وهو في طريقه إلى الخليل . وتحت ظلال شجرة تين عتيقة في طرف الضيعة الأتقى ، جلس « طالب معها ، وراجع الثلاثة خطة العمل . فقال لهما وليد إنه سوف لا يعود إلى رام الله قبل تنفيذ المشروع . وأن عملية بر سبع سيبدأ تنفيذها في اليوم التالي لوصول طالب وأنطون إلى القاهرة ، حيث سيقظرها . والمراسلات قبل ذلك ممنوعة !

وكان من المقرر أن يحصل طالب على إجازة مدتها أسبوع في شهر سبتمبر « على أن يختار أسبوعا لا يكون القمر فيه بدرا . وأخرج وليد من جيبه مفكرة ، وبدأ الثلاثة يتناقشون في التاريخ .

وانتهز انطون هذه الفرصة وراح يتأمل وجهي زميليه الجادين ، وشعر على الفور باختلافهما عنه . وإن علة ذلك الاختلاف كاملة فيه هو وفي ظروفه . نهذه العملية التي ظل يحلم بها طيلة أربع سنوات . لم تعد بالنسبة له الآن في المقام الأول من الأهمية . لم يعد حريصا على الانطلاق نحو الظهيرة كما كان يتنهي منذ بضعة شهور . غفل أمانيه اليوم محصورة في البقاء قرب ثريا ، وما من شيء بعد ذلك يعتنيه . وكأنما عودته من أرض المنفى لم تكن إلا من أجلها . أما طريق بئر سبع فبدات تتخلى عن مكائنها كي تحتلها طريق أخرى ، هي الطريق إلى ثريا !

وفي الوقت الذي انصرف فيه صاحبه إلى مناقشة أنسب موعد ، كان هو يسترجع بخاضعة شفقتي ثريا المطبقين ، وزميرتها الصغيرة بعد ذلك ، وقد تحولت من طالبة طب رائفة بنفسها ، إلى فتاة عاشقة مرتجفة الأوصال بين يديه !

وقطع عليه صوت وليد الجاد حبل تأملاته الحائرة :  
« اليس هذا رايتك أيضا يا انطون ؟ » . فأسرع بقول له :  
« هو ما نقول . ويخيل إلى أنه سيكون في وسعي أن أحصل على عطلة في نفس الوقت الذي يحصل فيه طائب على عطلته ، لأننا لا نعمل في قسم واحد من أقسام المعهد ، بل في قسمين مختلفين » .

فتجهم وجه وليد وقال : « ليس حديثنا الآن عن التواريخ . فقد فرغنا من هذا . وإنما كنت أقول أنك ينبغي أن ترحل من

الخليل إلى الظاهرية بمفردك ، وإن يسافر طائب إليهما مع أقاربه الذين سيحضرون إلى الخليل لاصطحابه » .

— بمفردى تماما ؟

— ليس تماما . بل سأرسل عني منير لاصطحابك . وإنما الغرض من هذا ألا تسافرا معا أنت وطائب .

— يؤسفني أنني لم أكن مركزا ذهنى في الحديث . ولكنى موافق طبعاً على هذا الرأي .

فقال طائب عندئذ بلهجة بادرة : « لعلك — في اليوم الموعد — أن تركز ذهنك ، لأنك ستكون بحاجة إلى تركيزه ، مع كل خلوه تدخلوها عند القسائل !

## - ٦ -

ومن لندن كتبت ماريان :

« عزيزى انطون » :

« اسعدنى ان أعلم ان الامور جرت على نحو ما تمنيت ، بشأن ما بينك وبين ثريا . وكذلك سعد جدك بهذه الأنباء ، وليس هناك ما يمنع مطلقا من إعلان خطبتكما رسميا ، مادامت هذه رغبتك ورغبة آل سلبا . أما عن اقتراحك ان أحضر بالطائرة لشهود ذلك الحفل في أوائل أكتوبر فهو اقتراح قريب إلى نفسى جدا ، وستكون مناسبة طيبة للاجتماع بسائر اقاربى الفلسطينيين مرة أخرى في رام الله . والحقيقة انه من الجائز ان أحضر إلى عمان في نهاية سبتمبر ، لأعمال تتعلق بالصحيفة ، ولم أشأ أن أذكر لك ذلك من قبل لأننى لم أكن متأكدة من التاريخ . وسأبرق إليك بموعد وصولى على أمل أن تتمكن من استقبالى في المطار ، أنت « وكنتى » المستقبلة ثريا . جدتك وجدك يضممان صوتهما إلى فى إهداء التهاني إليكما معا » .

وفرح انطون فرحا عظيما بهذا الخطاب . وأطلع عليه ثريا والديها . وشاركه فى الفرح سائر اقاربه فى رام الله ، والأنسة ريس وأمين ، وكل من يعرفهم . . فغيا عدا وليد الذى لن يجرؤ على إخباره بموعد الخطبة إلا بعد الانتهاء من عملية بئر سبع !

وعلى كل حال لم يعد الاجتماع يثريا مشكلة عويصة . فقد دبر الأمر مع مستر شابلى بمساعدة الأنسة ريس كى يخطبه من العمل يوم الأحد من كل اسبوع ، فيركب دراجته إلى رام الله ويرى ثريا ، إما فى بيتها أو فى بيت آل داود .

ولم يكن انفرادهما أمرا كثير الموضوع فى تلك الزيارات . ولكن الفتاة لم تكن تتوقع ذلك ، وانطون كان يعلم أن الأردن ليست كبريطانيا « وأن ثريا ليست كروزا » ، وهو لا يتمنى الآن شيئا أكثر من جوارها . ويجد فى ذلك سعادة لا يعمده فيها الشعور بالحرمان .

ومسار يجد عتاء شديدا فى إرغام ذهنه على التفكير فى وليد ، فإذا نجح فى ذلك تولاه إحساس بالإثم لأنه خائن بما عاهده عليه ! . . ولكن الأمر خرج من يده ، لأن ثريا صارت جزءا لا يتجزأ من حياته . وكل شيء عداها هو وهم لا يستطاع ان يقتنع نفسه بواقعيته .

واستمر الحال على هذا المذوال إلى أن انقضى شهر بولية . وفى أغسطس بدا يشفق من اقتراب الموعد المضروب بينه وبين وليد ، وأحس كان شبكة تكاد تطبق بأطرافها عليه ، ولكن الوقت أخذ يمضى ، ويدنو بمضيه شهر سبتمبر ، ويزداد بهذا الدنو قلقه . حتى انه لم يجد محيصا فى النهاية عن مناقشة الموضوع من حيث عمومياته مع ثريا ، من غير أن يتورط فى إقضاء السر الخاص بصاحبيه !

وذات يوم ، فيما هو جالس معها فى حديقة بيت والديها ، سألها عن رأيها فى التسال عموما : « ولماذا الحق كما تعلمين

في العودة إلى ديارنا ، وهو حق طبيعي ومقدس . ولئن كانت الدول الكبرى - وهيئة الأمم المتحدة - نأبى أن تساعدنا في الحصول على ذلك الحق ، فما عذرنا أمام أنفسنا في الامتناع عن محاولة تحقيق ذلك بأنفسنا ؟ » .

— إن المسألة تنحصر في إمكان هذا العمل أو عدم إمكانه . فإذا كان التسلل ممكناً ، فجدواه مثكوك فيها .

— ولكن ما رايك إذا كان التسلل ثوبنة لإنشاء حركة مقاومة سرية داخل الأرض المحتلة ؟

— كنت أمهم هذا لو أن الفلسطينيين كانوا أغلبية أو شبه أغلبية ، في الأرض المحتلة . . أو حتى لو كانوا أقلية كبيرة . أما وهم لا يتجاوزون السبعين ألفاً ، فالمعملية غير متكافئة وغير منطقية !

فنظّر إليها أنطون بأسى شديد ، وقال : « لو كنت وأهلك من اللاجئين لما قلت بهذا الكلام ! » . فوضعت راحة يدها على ظاهر يده ، وقالت : « أرجو أن تصدقني حين أقول لك إنني لو كنت لأجنة لكان راى في الأعمال العنيفة غير المنطقية ، وغير المثمرة ، هو عين راى الآن ! » .

— ما أشبه هذا الكلام بكلام من يسمون أنفسهم — أو يسميهم الإنجليز — بالعقلاء ، أو من يقبلون الأمر الواقع ويستسلمون للهزيمة ! لقد خسرنا الجولة الأولى في هذه الحرب مع اليهود بسبب التقصير والخيانة ، وما لم تفعل شيئاً ، سنظل خاسرين إلى النهاية !

— ليس إلى النهاية . نعامل الزمن في جانبنا !

— كثيراً ما قيل لى هذا من قبل . ولكنى لا أستطيع الصبر مائة سنة . بل لابد لنا من العمل العاجل . وإن كنت قد تعتقد أن ما أقوله تعبير عما يسمونه « عقلية اللاجئين » .

— لا أكتفك أن هذا راىي فعلاً .

وعندئذ خيل إليه أن استمرار المناقشة غير مجد ، وثمنى نجاة لو أن وليداً بجواره كى يرفع من روحه المعنوية ويقوى من إيمانه . فقد عل من عزيمته كثيراً أن يجد ثرياً معارضة لرايه « مثلاً في ذلك مثل أمه وجدته وصديقه أمين . . . » . فحينئذ إليه أن مسر شابلى يمكن أن ينير له الطريق « فانهز فوراً انفراده به بعد أيام — وهما في طريقهما إلى إحدى القسرى سيرا على الأقدام ، لزيارة أسرة لديهما ابن مكثوف يزج بسخله وتزهر ونوبات هبلجه كل من حوله — فالتقى عليمه نجاة سؤاله :

— ما رايك في التسلل ؟

— وسيلة خرقاء . ولا سبها من الناحية الأخلاقية ،

— الا تعتقد أن من حقنا نحن اللاجئين أن نعود إلى ديارنا ؟

— ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً !

— بلئ ! هذا أمر لا مراء فيه ، ولكن السبيل إلى هذا أبس

التسلل الفردي ، لانه يجرح الدولة التى تستضيف اللاجئين .

وليس من حقت أن تشكو من عدوان خصك إن أنت سلكت

سبيل العدوان !

- وهل من العدوان أن يحاول المرء العودة إلى داره ؟  
 — نعم . إذا كانت الوسيلة منافية للقانون والنظام !  
 — وما العمل إذن ؟

— وجهة نظري في هذا هي وجهة نظر المهاتما غاندى .  
 فالوسيلة المناسبة هنا هي العمل الجماعى السلمى المناهض  
 للعدوان والعنف . هل تذكر الزحف الكبير نحو الملح في الهند ؟  
 إنك بالطبع لا تذكره لأنك لم تكن قد ولدت بعد . إن  
 الحكومة الإنجليزية في الهند كانت تحتكر الملح ، وتضيق  
 عليه ضرائب باهظة ، فقرر المهاتما غاندى أن يدعو الشعب إلى  
 الامتناع عن أداء تلك الضريبة ، باعتبار ذلك الامتناع جزءا  
 من معركة العصيان المدنى . وتزعم المهاتما غاندى الوفا من  
 مواطنيه زحفوا إلى شاطئ البحر ، حيث استخلص بيده  
 حفنة من الملح . وهو عمل لا يعدو في قيمته أن يكون رمزا ! —  
 وعلى هذه الصورة تمثل معسكر اللاجئين الكبير في الأردن ،  
 أو سائر المعسكرات الموجودة في هذه البلاد ، وقد غادرها  
 سكانها جميعا وتدفقوا في مسيرة كبرى قوامها جيش عرم من  
 الجياع المهلهلى الثياب ، زاحفين وهم عزل من السلاح تحسو  
 الحدود التى فرضت عليهم عسفا . . رجالا ونساء وأطفالا ،  
 وجهتهم ديارهم المسلوطة . . وقد لا يتمكنون من تجاوز  
 الحدود ، أو قد يصلون إلى الشقة الحرام . ولكنهم سيبرزون  
 ضمير العالم !

— ولكن مدافع اليهود الرشاشة ستحصدهم من أوكارها  
 فوق قمم التلال ، ومن الطائرات !!

— وهل يعقل أن يحصدوا الوفا من العزل من السلاح في  
 مثل ذلك الموكب الرهيب ؟

غصرخ انطون : « انهم لا يتورعون عن ذلك . ولن يعدو  
 الأمر في نظرهم أن يكون مذبحة أخرى من سلسلة  
 مذابحهم ! » .

وهكذا انتهى ذلك الجدل أيضا إلى الاخفاق ، ولم يجد  
 انطون من يسانده في موقفه .

## - ٧ -

وفي اواخر سبتمبر ، قبل الموعد المتفق عليه ببضعة ايام ، قال انطون لثريا انه قد ازمع الذهاب لقضاء بضعة ايام مع وليد وعائلته في الخليل ، وقد تستغرق هذه الزيارة اسبوعا على الاكثر . ووقع منها هذا النبا موقعا غير حسن ، لان عطلة الصيف قد اذنت بالانتهاء ، وعندئذ سستعود إلى بيروت ، فلا يقضى لها ان تراه إلا في عطلة عيد الميلاد . وقالت له : « لا ينبغي لك ان تطيل الغياب ، فلا بد لنا من إعداد العدة لحفلتنا كما تعلم » .

وكانا جالسين في ركن منعزل من حديقة ال سابا . نطوق ذاتيها بذراعه « فحولت وجهها إليه . . فطبع على شففتها قبلة ناعية ، ثم قال : « ما اسمعني ! كم وددت لو لم يكن لزاما علي ان اذهب إلى الخليل ! فلا امنية لي سوى قضاء كل دقيقة من المدة الباقية معك ! » .

— لماذا إذن تذهب إلى الخليل ؟ ما الذي يلزمك بذلك ؟

— لقد وعدت وليدا !

— وهل أمره يعينك إلى هذه الدرجة ؟

— إنه صديقي الكبير . بل صديقي الاوحد . كنا تلميذين في المدرسة معا ، وظللنا على اتصال مستمر طيلة غربتنا في إنجلترا .

— كل هذا مفهوم . ولكنه لم يعد الآن صديقك الاوحد .  
فأجابها بإصرار : « أنت حبيبتي ، أها هو صديقي .

والامران مختلفان . فحبي لك لا يغير من شعوري نحو وليد . وأنا في الواقع لا أريد ان اقتطع من وقتي معك بالذهاب إلى الخليل . ولكني كنت قد وعدته بذلك منذ زمن طويل جدا ، ولا بد لي من الوفاء بوعدي ! » .

.. فتنهت : ثم قالت : « كما تشاء . ولكن لا تهمل القيصاب » .

— ساعود في الوقت المناسب لإقامة الحفل .

— إن شاء الله .

— احل - إن شاء الله .

\*\*\*

وسافر انطون وحالب معا بالسيارة العمامة من بيت نجم إلى الخليل . ووقفت الأنسة « ريس » تودعهما ملوحة يدهما أمام مبنى المعهد الرئيسي . أما أمين فقال لأنطون وقد وضع يده على ذراعه : « عد إلينا سريعا ، فأني سأفتقد أحاديثك وسمرك في الليل . . مع السلامة » .

وفي الطريق ، لم يسأل « طالب » أنطون إلا سؤال واحد بخصوص الحصول على الترخيص . وفيها عدا ذلك لم توجه إليه كلمة واحدة . . . وكانت السيارة العمامة تمر في



طريقهما - بين بساتين التفاح ، والحقول المزروعة ،  
ومعسكرات اللاجئين : وطالب يطل على ذلك كله من النافذة  
بوجه صارم ، تطب : وفي ذهنه أنه لولا عملية بئر سبع هذه ،  
لن كان يوسع ان يقضي اسبوع العطلة في معسكر اللاجئين مع  
زوجته . اما الآن فان يسعه ان يقضي معها ، من هذا الاسبوع  
كله ، يوما واحدا ولا ليلة واحدة . ولم يكن قد انبأها بأمر  
الإجازة التي حصل عليها ، أو ما اعتزم ان يصنعه فيها ، ولكنه  
قد يخبرها بعد عودته ويروي لها انباء مسقط رأسهما  
( بئر سبع ) .

وكان وليد في استقبال السيارة المملة في الخليل « مهتلج  
الوجه » ، شرح الصدر . لقد تم إعداد العدة لاستقبال  
الضيوف ، وما عليهم إلا ان يذهبوا إلى بلدية المدينة  
التي...

قال وليد لأمه ان عمة تير في المدينة ، وسيعسحبها  
في سيارة المهددة . أما طالب فيتوقع وصول اقاربه من  
الامم المتحدة ، السيارة المملة التي تصل بعد ظهر ذلك اليوم .  
وقال طالب حاد ، لوليد : « ومتى سننطلق إلى هناك ؟ » ،  
ناحبا وليد : « الليلة . فليس هناك ما يدعو للتسكع هنا » .  
وعندئذ سأل أمه ان يحاول ان يجعل لهجته طبيعية :  
« كم من الوقت يلزمنا في اعتقادك للوصول إلى هناك ؟ »  
فقال وليد : « إن المسافة تبلغ نحو اثني عشر كيلومترا  
بالطريق المهددة . ولكن لابد لنا من تجنب تلك الطريق » .



شبهت ، ثم قالت : « كما تشاء . ولكن لا نزل الغياب » .

وسيكون السير في هذه الحالة شاقا جدا وتحت جنح الظلام .

وقال طالب : « ربما استطعنا أن نقطع المسافة في ثلاث ساعات . فقد رتبنا كل شيء في ذهنى . على أن نتجنب المرور بالقرى والكفور » .

وكانوا ينكلمون وهم في طريقهم إلى البلدية ، والتجهيز باد على وجه طالب كالعاده . أما وليد فكان على سجيته . إلا أنه كان جادا . وأما انطون فكان يشعر بهبوط في غواء وروحه الممنوبة ، حتى لقد عجز عن اصطناع تلك الابتسامة التي كان يجيدها . وقبل أن يسألوا إلى البلدية ، لحق بهم العم منير ، فرحب بالطلوبين ترحيبا حارا . وقال لطالب : « بينى هو بيتك . يا مرحبا » .

وصحبهم إلى البلدية حيث كان له صديق من موظفيها . فاستطاع الحصول على الترخيصات على الفور ، من غير أن يتجشعوا الانتظار مع عشرات المنتظرين . ثم قال وليد لانتون : « سوف لا نذهب في هذه المرة إلى الحانوت ، لأننى لا أريد أن يعلم أقاربى بذهابنا إلى القلهرية . ولكننا سنزورهم عند عودتنا ، وإن كانت هذه الزيارة سنتهم ونحن متفرقين » . لأننى قد أبقى في بئر سبع مدة شهر » .

ثم توجهوا إلى مطعم شعبي في شارع خلفي بالمدينة ، وهناك شعر انطون بحالته النفسية ترداد سوءا ، فلم يستطع أن يمس الطعام . ونظر إليه طالب بخبث ، وقال : « كاتى بك

خائف ؟ » ، وقال وليد : « كثيرا ما تتوتر الأعصاب عند اقتراب ساعة الصفر » ، فقال انطون : « ليس توتر أعصابى بسبب خوف من عملية التسلل ذاتها - فما أكثر من يقومون بها - ولكنى في الحقيقة لم أعد مؤمنا بجذوى هذه العملية » .

ونظر إليه وليد نظرة صارمة ، أما طالب فضحك ضحكة استهزاء . ثم قال وليد بصوت بائر : « يبدو أنك لم تعد تصلح للإيمان إلا بفنافة تدعى ثريا سابا ! إنك لم تعد تؤمن بعملية بئر سبع » ولا بالتسلل . لأن هذه الأفكار كلها ، لم تعد مناسبة لك ! » . ثم دفع وليد صحفته من غير أن يتم تلعبه ، في حركة تدل على منتهى الاستهزاء والتقزز ، ورفع نظره إلى انطون وقال : « هناك سيارة عامة تقوم إلى بيت لحم بعد الظهر . ومن الخير أن تستقلها . بل لعل أفضل من هذا وذاك أن تعود إلى إنجلترا حيث نقضى » وأن تقطع منذ الآن عن ادعاء انتمالك إلى العروبة التي كان أبوك من أبطالها . نانت إنجليزى كلك ! إنجليزى حتى النخاع ! » .

ونفض انطون عن المائدة . وقد شحب وجهه شحوبا شديدا حتى حاكى الثلج في بياضه ، وقال : « سأنصرف » ، لأنه لم يعد ثمة مبرر لبقائى " ... فقال وليد بمرارة : « إطلاقا » .

وأطلق طالب ضحكة ساخرة ، وأولاهما انطون ظهره ، ولم يلبث أن اختفى .

- ٨ -

وبعد ظهر ذلك اليوم ، وصلت إلى حانوت أقارب وليد بالخليل « برقية باسم أنطون بطرس منصور محاولة من بيت لحم . وكانت هذه البرقية بعينها قد وصلت إلى المعهد في الصباح بعد رحيل أنطون ومطالب . فلم يسمع مستر شابل - بعد استشارة الأنسة ريس ، والرجوع إلى أمين - إلا أن يحول البرقية إلى عنوان أقارب وليد ، لأن المقروض أن أنطون سينزل خيفا عليهم هناك طيلة ذلك الأسبوع . وكانت البرقية من أمه ، ونصها : « أصل ( عمان ) في منتصف السادسة صباح غد بقوفيت الأردن » .

وكان المفروض طبعاً أن تصل البرقية إلى أنطون في اليوم نفسه ، كي يفادر الخليل إلى عمان في الحال لاستقبال أمه . ولما كان الشبان الثلاثة قد تحاشوا المرور بالحنوت - في الخليل - فقد تحرر أقارب وليد في معنى تحويل هذه البرقية إليهم . وأخيراً قرروا الاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها صاحبها !

وفي هذه الأثناء ، كان الصراع ناشباً في سريرة أنطون : بين إثارة المسألة ، وبين المضي في الكفاح الوطني كما اتفق عليه مع صديقه وليد . . . ولم يدم ذلك الصراع طويلاً ، لأن حمية الشباب ، ونخوة القومية ، أشعرتاه بالخزي لموقفه المتخاذل ، ولم يأت الأصيل حتى كان قد غير اتجاهه وأخذ طريقه إلى الظهيرية - وليس إلى بيت لحم - ليحاول اللحاق بصاحبيه .

وكان منير حسين وزوجته يتأهبان للنوم ، عندما طرق بابهما طارق ، فبادر منير إلى بندقيته القائمة في ركن من الحجرة ، وخرج سعيد من الحجرة الأخرى وفي يده بندقيته . فقد تصود أهل الظهيرية أن يطرق بابهم أفراد الحرس الوطني للإنذار بغارة من غارات اليهود على الحدود . وقد يكون الطارقون هم المقيمون أنفسهم . أو هم أفراد الحرس الوطني وقد ضيقوا وليداً وطالباً يحاولان التسلل لمجاوءا لإلقاء القبض على سكان الدار أو نساء بئر سبع التواطؤ ! .. وصاح منير بصوت أجش : « من هناك ؟ » .

— أنا أنطون منصور . صديق وليد .

وعلى الفور فتح الباب . ولم يابه أنطون بالرد على عبارات الترحيب والمجاملة ، بل مسح في لهفة يسأل عن وليد ومطالب . . فغلب له : « لقد رحلا منذ ساعة ، ولن تستطيع اللحاق بهما الآن في الغلام . استرح » .

وجلس أنطون ، ثم تناول قندح اللبن الذي قدموه إليه ، وهو يقول : « إني في غاية التعب . فقد جئت مسائراً على قدمي من الخليل . والمسافة ليست طويلة » ولكني حرصت على الاعتماد عن الطريق حتى لا أتع في يد الدوريات الليلية . ولابد لي الآن من اللحاق بهما . فقد تشاجرت مع وليد وافترقنا متخاصمين . ولكني راجعت نفسي . ولابد لي الآن من الانصراف حتى لا تزداد المسافة بيني وبينهما . إلا أنني أتى سادركهما ؟ » .

— هذا يتوقف على سرعتكما في المرحلة الأولى . وهذه المرحلة تقع في الشقة الحرام . وهي أصعب المراحل . ولكن طالبا يعرفها بالشبر . ووليد قضى السنوات الأخيرة في تفقدها بين الحين والحين . وهو يتظاهر برعى الأغنام أو العمل في الحقول . كلها ستحت له فرصة للحضور إلى هنا . أما أنت فمن الجنون أن تجازف بالمضي وحده لأنك لا تعرف تفاصيل الأرض في هذه المنطقة .

— ولكن لا مناص لي من الذهاب !

— وما الذي جعلك تغير رأيك ؟

— وجدت أن إحساسي العميق بقوميتي أرجح عندي رأيي من نداء العقل ، وصوت المصلحة ، وروابط العواطف الأخرى . وأحزاني أن يصنئ طالب بأننى إنجائزى . ثم لم يلبث ووليد أن تبعه في ذلك ورماني بأننى لا أصلح إلا لصحبة النساء !

— ولكنك على الأقل يجب أن تأكل شيئا قبل أن تتطلى . ولم يسمع أنطون إلا أن يشرب الشاي ويأكل كعكة مما قدم إليه على خوان من النقاس — على الطريقة العربية — مع شيء من جبن الماعز والزيتون الأسود . ثم كرر عليه منير ووالده العجوز النصح بالآبى جازف بالتسلل في الليل وحده وهو يجهل كل شيء عن المنطقة . ولكن أنطون قال : « لا بد من هذا . وفي وسعكم أن تساعدوني . فأتى أعلم أن طالبا رسم خريطة لهذه المنطقة غاية في الدقة . فهل لديكم هذه الخريطة ؟ » .

وجاءه منير بالخريطة . وكان أنطون قد تدرب على قراءة الخرائط العسكرية في معسكر التدريب في إنجلترا . وأظهر في ذلك تفوقا ملحوظا . فجعل يطبع في ذاكرته جميع التفاصيل . وكى يطمئن منيرا طوى الخريطة ثم شرع يرسها من ذاكرته . فلم يترك منها شاردة أو واردة .

وعلى باب الدار ، ودعه منير وسائر أفراد البيت ، قائلين :

— كان الله معك . مع السلامة .

\*\*\*

وكانت الليلة حالكة السواد ، لا قبر فيها . وأخذ أنطون يتحرك بحذر ، والخريطة مرتسمة في مخيلته ، وهو يحرص على ألا يحدث صوتا بمشيئه فوق الحصى الكبير غير المتناسك . وفي بعض المواضع كان يضطر للزحف . وقدر أن وليدا وطالبا لا بد قد اجتازا خط التقسيم ودخلا في البرية منذ أكثر من ساعة . ولعلهما قد اجتازا البرية أيضا ووصلا إلى سفح التل . وحين يقترب منهما — زاحفا في الظلام — قد يتأهبهما الرعب ، بل قد يقبأن إليه ، ولكن حسبته أن يهمس باسم وليد ، قائلا له « ها أنذا قد أتيت يا وليد ! » .

وهذا نفسه عند هذه الخاطرة . وكانت الطريق تبدو متعرجة بين التلال ، منحدرية إلى بئر سبع . وجلس يستريح قليلا ويلتقط أنفاسه اللاهثة ، ويصفى لسكون الليل يمزقه نباح كلب في مكان بعيد ، عند أحد معسكرات البدو . وجاوبته بالنباح كلاب أخرى في قرية مجاورة . ثم لم يلبث

الصوت أن خبا . وأعقبته بعد قليل نغمات من ناي بعزفه شخص ما داخل كوخ مقفل .

وانتقلت خواطره إلى الحراس اليهود الكاهنين في أوكارهم فوق التلال من الجانب الآخر . أترامهم يلعبون الورق الآن بين نوبات الحراسة وأوقات الدورية لا هل إحدى دورياتهم الآن تجتاز الوادى ؟ إن مثل هذه الدوريات هي الخطر الحقيقي ، أما الحراس فوق رؤوس التلال فلا خطر منهم في هذا الليل البهيم . وإنه ليعجب كيف استطاع وليد وطالب أن يفلتا .

ونفض وشرع يهبط إلى بطن الوادى بحذر . وكانت الحمباء تنزلق تحت قدميه ، ولكن صوتها لا يصرى في الليل طويلا . وهو مستمر في زحفه ، مستترا بالصخور البارزة ، متنقلا بينها على يديه ورجليه . ثم يتوقف بين الحين والحين ، ويصيح السمع .

واصلطد في زحفه بشجرة من الشوك ، فادمت يده وكاد يصرخ من الألم ، وأنجست الدموع من عينيه ، ثم زايله الألام عندما جمد الدم في عروقه لسماعه نباح كلب يقترب منه بخطوات واسعة . ثم لم يلبث النباح أن بعد ، وتبين أنه لم يكن كلبا كما يخشى ، بل ابن آوى .

كان يتقدم ببطء والمسافة قد أمست في نظره أطول مما يتصور . وتراعت له على البعد أنوار كشافة فخلق قلبه خشية أن يسقط عليه شعاع من أنوارها من فوق إحدى

القمم ، وأنشأ يجرى كى يختصر المسافة ويحتمى بالجانب الآخر حيث مسطح التل ، وحيث يقدر أن صاحبيه قد وصلوا منذ حين . وتعثر وهو يجرى ، وسقط على وجهه ، فظل بلا حراك وقتا طويلا ، وهو يرهف السمع ، ولما اطمأن أخذ يزحف على بطنه خائفا من الوقوف على قدميه ، وجعل يشجع نفسه بجميع الخواطر الممكنة ، ويحاول أن يتذكر بقية الخريطة ، وموضع بيت شقيق طالب قرب السوق في بتر سبع . ونظر من فوقه إلى النجوم وقد أخذت تتكاثف فيما خيل إليه .

واستجمع قواه ونهض ، وأخذ يجرى بخفة . . ولكنه تشعر مرة أخرى ، فعدل عن الجرى إلى السير البطيء ، إلى أن وجد الأرض مستوية تحت قدميه ، خالية من الصخور التي يمكن أن يتوارى خلفها حتى قاعدة التل التى يقدر أن صاحبيه يجلسان عندها . وتبنى لو استطاع أن يقطع هذه الأرض المكشوفة منتصب القامة ، حتى يرياه على تلك الحال ، ولكنه لم يجسر . واستمر يزحف على بطنه . وفجأة تجدد النباح . واقترب الكلب منه اقترابا شديدا ، فالتقط حصاة تذفه بها . ولكن نباح الكلب اشتد ، ثم تبين عينيه في الظلام على قيد أقدام قليلة منه . ثم سمع لفظ كلام لم يتبينه ، فلم يكن أمامه إلا الفرار السريع . ووثب كالإيل الشارد ووجهته بطن الجبل . .

وبزقت سكون الليل طلقات مدفع رماطيني

ومات أنطون قبل أن تسقط جثته الدامية على أرض  
الثقة الحرام .

\* \* \*

وبعد بضع ساعات بزغ الفجر على وليد حسين وطالب  
حمادى وقد دخلا بئر سبع . . وعلى طائرة ماريان وهى فى  
طريقها إلى عمان . . وعلى ثلة من الرجال يحملون إلى خط  
التقسيم جثة شاب فلسطينى ليسلموها إلى حرس الحدود  
الاردنيين .

وتجمع حشد من الناس صامتين ، كان على رؤوسهم  
الطير .

إنه شهيد آخر - ولن يكون الأخير - على الطريق إلى  
بئر سبع !

« نمت القصة »

—————

—————



**Looloo**

www.dvd4arab.com



## مطبوعات كتابي إصدار جديد

### عزيزي القارئ :

إيثيل ماثين - مؤلفة هذه الرواية المشوقة - رواية إنجليزية معاصرة ، من أصل إيرلندي ، ولدت في لندن عام ١٩٠٠ . وهي تعتبر «عصامية» ثقفت نفسها بنفسها - إذ اضطررتها الظروف إلى ترك المدرسة في سن ١٤ سنة . كن تعمل كاتبة اختزال في وكالة للإعلانات ، ثم تدرجت في العمل حتى صارت - في سن ١٧ سنة - مساعدة محرر مجلة المسرحية والرياضية (ذي بلوكان) . وفي سن الثانية والعشرين كتبت روايتها الطويلة الأولى . ودخلت بها مسابقة للقصة القصيرة . ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام بانتظام .. كما ألقت عدة كتب في آداب الرحلات وصفت فيها سيناحاتها في كل من (بورما . والهند . وروسيا . والمغرب . ومطاجمة (برينان) بفرنسا . واليابان . ثم الشرق الأوسط ) . وقد ترجمت كتبها إلى اللغات : الفرنسية . والألمانية . والنرويجية . والألمانية . والإيطالية . والسكندنافية . وهذه القصة الممتعة التي صورت فيها مأساة العدوان الصهيوني القادر على محارب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ هي أحدث رواياتها . وقد صدرت في لندن منذ بضعة أعوام . وصدرتها بالإهداء التالي : «إلى اللاجئين الفلسطينيين . ومن أجلهم . أولئك الذين قالوا لي في كل الأقطار العربية التي استضافتهم : (لماذا لا تكتبين قصتنا نحن . قصة الخروج الآخر - خروجنا نحن ..) » وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها . ومعدناً لم تنفوها وتستكون بها . ومن كروم وزيتون لم تفرسوها تأكلون ..» (سفر يشوع من التوراة . عدد ٢٤ / ١٢)

وكتبت المؤلفة مقدمة للرواية قالت فيها : «حتى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ كانت ثمة دولة تسمى (فلسطين) . وهي بلد عربي الصيغة بصورة واضحة . وحين صدر وعد «بلفور» في نوفمبر ١٩١٧ مقررًا أن الحكومة البريطانية تؤيد قيام وطن قومي لليهود في فلسطين . كانت غالبية السكان هناك من العرب . بنسبة تزيد على ٩٠ في المائة . إذ كان في فلسطين يومئذ نحو ٥٠ ألف يهودي . أما المسلمون والمسيحيون فكان عددهم نحو ٦٧٠ ألفاً .. ولكن في سنة ١٩٤٥ كان اليهودي والصهيوني البارز «هربرت سموريل» قد نادى بهجرة ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود إلى فلسطين تحت الحماية البريطانية . فوضعت من ذلك الطامع الصهيونية بصورة لا خفاء فيها . وثبت أن مايرمرسون إليه ليس إنشاء وطن قومي لليهود بل إقامة دولة يهودية مستكملة الأركان !! ولما صدر إعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الحل التبريدي في نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية (وفي سنة ١٩٤٩ أصدر الزعيم الصهيوني «أيزمان» تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغي أن تصبح يهودية مثلاً تعتبر إنجلترا إنجليزية !! وعند نشوب الحرب العالمية الثانية كان عدد اليهود في فلسطين قد قفز من ٥٠ ألفاً إلى ٦٠٠ ألفاً !!»